رواية | NOVEL

@ketab_n
Follow Me

3.6.2015

إيتالو كالفينو

ماركوفالدو

ترجمة: مُنية سمارة

مراجعة وتقديم: فخري صالح

أزمنة

رواية

إيتالو كالفينو

ماركوفالدو

@ketab_n

ترجمة منية سمارة

مراجعة وتقديم : فخري صالح

Twitter: @ketab_n

مارکو فالدو

Twitter: @ketab_n

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
١٩٩٧/١٢/١٨٣١

٨١٣
كالفينو، إيتالو
ماركوفالدو/إيتالو كالفينو، ترجمة منية سمارة.
ط١ ـ عمّان : دار منارات، ١٩٩٧
(١٤٨) ص.
ر.إ. ١٩٩٧/١٢/١٨٣١
الواصفات : الآداب//الرواية المترجمة/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 9957-09-004-6 (ردمك)

ماركوفالدو

إيتالو كالفينو (كاتب من إيطاليا)

الطبعة الأولى : منارات 1988

الإصدار الثاني : أزمنة 1999

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
info@azminah.com info@azminah.net
Website:http://www.azminah.com

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: إلياس فركوح
لوحة الغلاف : Candida Girling (جنوب أفريقيا/كندا)
تاريخ الصدور : كانون ثاني/يناير 2015

Twitter: @ketab_n

ولد ايتالو كالفينو في كوبا عام ١٩٢٣ ونشأ في سان ريمو في ايطاليا. . وهو كاتب وصحفي وناقد وروائي وعضو في هيئة التحرير في دار نشر «غيوليو إينودي إديتوري».

من أعماله القصصية والروائية «معبر أعشاش الرتيلاء»، «الفيكونت المشطور»، «البارون الجاثم»، «الفارس غير الموجود»، «بالومار»، «آدم ذات ظهيرة»، «علاقات حب صعبة»، «لو مسافر في ليلة شتاء»، «مدن خفية»، «بهلوانيات فضائية»، «ماركوفالدو»، وكتب أخرى في القصة والنقد.

كان كالفينو عضواً في الحزب الشيوعي الايطالي ولكنه اختلف معه وترك الحزب في أواخر الخمسينات على اثر حوادث المجر، وعمل مع ايليو فيتوريني على اصدار مجلة «ايل مينابو» الادبية.

اهتم في الستينات بالمدارس النقدية والفلسفية الجديدة في فرنسا خصوصا، واهتم برولان بارت وجاك دريدا، مما اثر كثيراً على طبيعة اعماله الروائية ومنحها عمقاً فلسفيا وأسبغ على نظرته الى الاشياء والعالم طابعا جديا مختلفا عما هو سائد.

توفي عام ١٩٨٥ عن عمر يناهز الثانية والستين بعد أن عرف شهرة كبيرة في العالم وخصوصا في البلدان الناطقة بالانجليزية والفرنسية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ايتالو كالفينو وتشريح المجتمع الصناعي

بقلم: فخري صالح

تقدم أعمال الروائي والقصصي الايطالي ايتالو كالفينو (١٩٢٣-١٩٨٥) صورة ساخرة فانتازية للعالم الصناعي الغربي، ولكن هذه السخرية في أعماله لاتظل مجرد طريقة في النظر الى الاشياء بل أداة اسلوبية للكشف عن التناقضات والغرابات في حياة الانسان البسيط في المجتمع الصناعي، وبالتالي أداة لكشف الدور المغرِّب الذي يلعبه دوران عجلة الرأسمال في المجتمع الغربي. وعلى الرغم من أن أعمال كالفينو مكتوبة عن بيئة صناعية محددة يعرفها كالفينو تمام المعرفة، وهي بيئة المجتمع الصناعي شمالي ايطاليا، الا ان براعة كالفينو تكمن في قدرته على تحويل اللحظات الانسانية والازمات التي تصادف ابطاله الى تمثيلات نموذجيه تعبر تماماً عن الواقع الذي تخلقه الآلة في المجتمع الرأسمالي حيث يتراجع الانسان والاشياء الطبيعية ليصبحوا مجرد خامات تسمح لعجلة رأس المال بأن تدور.

في عمله «الروائي ـ القصصي» ماركوفالدو نصادف شخصية العامل ماركوفالدو التي تشكل محورا تدور حوله القصص جميعاً. تبدو شخصية ماركوفالو في عمل كالفينو نموذجاً رافضا للمجتمع الصناعي، ولكنه يمثل ذلك النموذج الذي ينبثق رفضه من ارتباطه الطبيعي بالارض وأشيائها غير المصنعة: بالنباتات، والفطر، والحيوانات الاليفة، قططا، وابقارا، وأرانب وحماما، والغابات والانهار والجبال. ان ماركوفالدو يتجول في تلك البقعة الضيقة من العالم الصناعي باحثاً عن أثر للطبيعة بعد أن دمر المجتمع الصناعي الاوروبي كل المظاهر التي تشير الى نضارة الطبيعة وبساطتها. وهكذا تبدو شخصيته منذ الصفحات الاولى للعمل

Twitter: @ketab_n

شخصيـة غريبـة غير مألـوفـة بسيطـة الى حد السـذاجـة. ومن خلال خلق جو المفارقات وإشاعة جو السخرية يكشف كالفينو عن طبيعة نضرة اصيلة لم يستطع العالم الصناعي أن يخربها، ويحولها الى مجرد رقم في اقتصاديات العجلة الصناعية.

إن شخصية ماركوفالدو تبحث كما قلنا عن أثر للطبيعة دون ان تجده وعندما تظن ان ما وقعت عليـه هو شيء طبيعي لايخضـع لعمليـات التبـادل تقـع في مشكلات ومفارقات تفجر في قاريء العمل الضحك وتكشف في الوقت نفسه عن الطبيعـة القمعيـة التي تصـادر الحـريـة الانسـانيـة والتي يمثلهـا مجتمـع الآلة. انه يكتشف مثلا أنه بدلا من أن يصطاد حماماً برياً يصطاد الحمام الذي يربيه الجيران، وبدلا من أن يعالج مرضى الروماتيزم بلسع النحل يعالجهم بلسع الدبابير، وبدلا من ان يقطـع أغصـان الاشجـار ليتـدفأ هو وعـائلتـه في الشتاء يقوم باجتثاث غابة الشاخصات الاعلانية التي تغرق مدخل المدينة، وبدلا من ان يسرق أرنبا صحيح الجسم يسـرق أرنبـاً خاضعـا للتجـارب ومحقـونـاً بجـراثيم سامة وخطيرة. وهكذا تشكل كل قصة من قصص ماركوفالدو مفارقة جوهرية تكشف عن تدمير الطبيعة وتدمير عناصرها الاولى.

بالاضـافـة الى هذا الاحتجـاج الـذي يرفعـه ماركـوفالدو ضد تخريب الطبيعة نلمـح خطـا خفيـاً يتحـرك في القصص، خطـاً يحاول أن يبرز الشرخ الذي يقسم الحيـاة الاجتـمـاعيـة ويـبـرز بالتالي معاناة ماركوفالدو وعائلته. ففي مجتمع تكون فيه التسلية الوحيدة للفقراء هي مشاهدة الشاشة الكبيرة كل شهر اوكل عام، تشكل الاحلام أكثر من مجرد متعة. انها تشكل تعويضا للحرمان وعيشا في عالم مُتمنى. وهكذا فان ماركوفالدو، وبعد أن يشاهد فيلما يصور غابات الهند والعالم الطبيعي الذي يحلم به ماركوفالدو، ينسى نفسه ويخطيء في تعيين محطة الترام التي عليه أن يغادر الترام عندها، فيتوه في الشوارع وفجأة يجد نفسه على متن طائرة تنقله الى غابات الهند.

إن هذه النقطة الجوهرية التي يتحول عندها المشهد السينمائي في خيال العامل البسيـط الى واقـع هي بؤرة عمـل ايتـالـو كالفينـو الذي يمزج بين الواقع والخيال بطريقة عبقرية يفجر فيها عمله ويفجر أفق معانيه ودلالاته. ولعل هذه الاسلوبية المؤثرة، التي لا أعلم أن أحداً من كتاب القصة في العالم يشاركه فيها، هي مايتوج

Twitter: @ketab_n

عمله ويجعله عملا غنيا بالدلالة مؤثرا وذا أعماق وأغوار طافحة بحب الانسان والتفاني في احترام انسانيته.

ان من الصعب علينا هنا تلخيص مظاهر الحس الانساني في عمل كالفينو ولكن، رغم ذلك، فان باستطاعتنا القول بأن المشاهد الكاريكاتورية في **ماركوفالدو** ليست الا تقنيات أسلوبية تعمل على إزاحة الغطاء عن الاحاسيس الانسانية البسيطة المتخفية وراء المظهر البسيط. إن المشاهد التشردية التي تذكر بمشاهد الاحتيال في روايات البكاريسك (رغم انها نقيض جذري لها)، تقود الى نوع من تفجير المشهد وإماطة اللثام عن القصد الاساسي للعمل والرسالة التي يبثها: أي تقديم رثائية ساخرة للطبيعة التي تخربت في المجتمع الصناعي، وبالتالي تقديم تشريح غوري لطبيعة العلاقات الانسانية في المجتمع الصناعي. وأظن أن كالفينو قد اختار هذه الشخصية البسيطة ليكشف من خلال وعيها البسيط عن حدة التناقضات في هذا المجتمع، لأن شخصية أخرى ذات وعي أعلى درجة لن تمكن الروائي من إبراز طابع المفارقة الذي ينشأ بسبب المسافة الموجودة بين الوعي والواقع. وتذكر شخصية ماركوفالدو لكالفينو بشخصية «الجندي الطيب شفايك» للكاتب التشيكي ياروسلاف هاشيك، وشخصية «المتشائل» لاميل حبيبي، إذ تشترك هذه الشخصيات جميعا بالتمتع بالبساطة التي تقدم تنويراً للمواقف وإماطة للثام عن وجه الحقيقة وتبرز بصورة باهرة حدة التناقض في الواقع الموصوف.

اعتقد في هذا السياق أن التقنية الاسلوبية التي استخدمها كالفينو في **ماركوفالدو** قد قدمت إضافة الى التنويع الاسلوبي، بعدا أكثر انسجاما داخل العمل يجعل الشخصية التي تتمتع بالبساطة أكثر قربا من القلب، من شخصيتي شفايك والمتشائل، أقصد شخصية ماركوفالدو غير مصطنعة بالمعنى اللغوي لهذه الكلمة. إنها شخصية طبيعية وان كانت تصوراتها غير مألوفة في المجتمع الذي تعيش فيه. ولقد لجأ كالفينو في عمله الى استخدام دورة الفصول لتوحد اطار العمل وجعل محور دورة هذه الفصول يتركز على تصورات ماركوفالدو حول متعلقات كل فصل، وبالتالي فان هذه الدورة ليست الا مجرد تقنية تعمل على الكشف عن باطن الحياة الطبيعية المجهضة بسبب العلاقات التي ولدها مجتمع الآلة. ولذلك اعتقد ان نهاية العمل الغنائية الجميلة التي تلخص منطوق

Twitter: @ketab_n

ماركوفالدو ليست الا نوعا من اقامة موازغنائي خارج من صلب العمل للقول بأن الصراع قائم، والتذكير أيضاً بالفعل الكتابي الذي بنى عليه كالفينو عمله الروائي الجميل الآخر «لو مسافر في ليلة شتاء».

Twitter: @ketab_n

ملاحظة من المؤلف:

تقع أحداث هذه القصص في مدينة صناعية في الشمال الايطالي، وقد كتبت المجموعة الأولى منها في بداية الخمسينات ولذا فقد صورت ايطاليا الفقيرة، إيطاليا الأفلام الواقعية الجديدة. أما القصص الأخيرة فقد كتبت في منتصف الستينات بعد أن انتعشت الآمال بالازدهار الاقتصادي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الربيع

١ . الفطر في المدينة

الريح التي تهب على المدينة من بعيد تجلب لها هدايا غير عادية لا يشعر بها سوى قلة من ذوي الأرواح شديدة الحساسية، كالذين يقعون ضحايا حمى القش فيعطسون لاستنشاقهم غبار طلع الأزهار القادمة من أراض أخرى.

ذات يوم، وعلى جانب الشريط الضيق من الأرض المحيطة بجادة المدينة، هبت عاصفة من البذور لا يعلم غير الله من أين أتت،منبتة الفطر. ولم يلاحظها أحد سوى ماركوفالدو، العامل الذي يستقل عربة الترام من ذلك المكان كل صباح.

كان ماركوفالدو هذا، واحداً من اولئك الذين لم يتكيفوا مع حياة المدينة: لوحات الاعلانات، واشارات المرور، وواجهات العرض، واللافتات المضاءة بالنيون والملصقات لم تحظ جميعاً، مهما كانت درجة الحرص في تصميمها من أجل لفت الانتباه، بالقدرة على لفت انتباهه الذي ربما يكون موجهاً إلى الصحراء يذرع رمالها الشاسعة. وبدلاً من ذلك كان لا يفوته أبداً أن يلاحظ اصفرار ورقة على غصن، أو ريشة عالقة على سطح أحد البيوت؛ وما من نعرَة[1] على ظهر فرس، أو ثقب دودة على غصن، أو قشرة تين مهروسة على

(١) Horsefly : النُعرَة: ذبابة تعض الخيل. (المورد).

Twitter: @ketab_n

جانب الطريق، إلّا ويلاحظها ماركوفالدو ويتأملها مكتشفاً تغيرات الفصول وأشواق قلبه ومحن وجوده. لذا، وفي صباح أحد الأيام بينما كان ينتظر الترام الذي سيقله إلى مقر عمله في شركة (سباف وشركاه)حيث يعمل هناك،كعامل غير ماهر، لاحظ شيئاً غير عادي قرب الموقف، على الشريط المقفر المتحجر من الأرض أسفل شريط الأشجار المحاذي للشارع؛ في أماكن معينة، قرب جذوع الأشجار، بدأت تظهر بعض النتوءات، هنا وهناك، وأخذت تتفتح مُفْسِحَةً المجال لبعض الأجسام الدائرية تحت ـ الأرضية بالبروز.

وحين انحنى ماركوفالدو لربط حذائه ألقى نظرة متفحصة: لقد كانت فطوراً، فطوراً حقيقية تنبت هناك في قلب المدينة! بالنسبة لماركوفالدو، تحول هذا العالم الرمادي التعس، الذي يحيط به، فجأة إلى عالم سخي يفيض بالثراء الخفي؛ مايزال ثمة ما يمكن توقعه من الحياة خارج معاشه المرتبط بساعات العمل، وبمؤشرات التضخم، وعلاوة العائلة، وعلاوة غلاء المعيشة.

أثناء العمل، كان ماركوفالدو أكثر شروداً من المعتاد؛ لم يكف عن التفكير، بينما كان يقوم بتفريغ الصناديق والأكياس، بالفطر الذي يخرج ببطء وهدوء من ظلمة الأرض، الفطر الذي لا يدري به أحد غيره وهو يشق بثمرته الناضجة سطح الأرض، بعد أن يمتص رطوبة الأرض ويكسر قشرة التربة. قال ماركوفالدو لنفسه: «مطر ليلة واحدة يكفي، وبعد ذلك يكون جاهزاً للالتقاط!». وكان ينتظر بفارغ الصبر ليخبر زوجته وأولاده الستة باكتشافه هذا.

أعلن لهم وهم يتناولون عشاءهم القليل: «ها أنا أخبركم أننا خلال أسبوع سوف نأكل الفطر! سيكون طبقاً عظيماً! هذا وعد!».

وبنشوة غامرة شرح لأطفاله الصغار، الذين لا يعرفون ما هو الفطر، جمال أصنافه المتعددة، ونكهته الشهية، والطريقة التي ينبغي طهوه بها؛ ثم استدرج إلى النقاش زوجته دوميتيلا التي كانت حتى ذلك الوقت ساهمةً شاردة الذهن.

سأل الأطفال: «أين يوجد هذا الفطر. أخبرنا أين ينمو!».

عند هذا السؤال خفت حماسة ماركوفالدو وداخله شيء من التوجس والريبة: إذا أخبرتهم الآن عن المكان سوف يجمعون أقرانهم من الأطفال

Twitter: @ketab_n

ويذهبون لالتقاطه، وسينتشر الخبر في المناطق المجاورة، وينتهي أمر الفطر ليستقر أخيراً في مقلاة أحدهم! وهكذا جعله الاكتشاف، الذي كان قد ملأ فؤاده بحب كوني شامل، يشعر الآن بحب مفرط للتملك وأحاطه بسياج من الغيرة وعدم الثقة.

قال ماركوفالدو لأطفاله: «أنا أعرف أين يوجد الفطر، وأنا الوحيد الذي يعرف مكانه. والله وحده يعلم ماذا سيحصل لكم إذا تنفس أحدكم أو باح لأحد بالسر.»

صباح اليوم التالي حين وصل إلى موقف محطة الترام، ساوره شيء من القلق، وأحس بالراحة حين رأى الفطر قد نما قليلاً، وكان لايزال مختفياً تحت مستوى سطح الأرض تقريباً.

وبينما كان على انحناءته تلك شعر أن شخصاً ما يقف وراءه فانتصب واقفاً للتو، وحاول التصرف بلا مبالاة. كان ذلك الشخص منظفَ الشوارع يقف متكئاً على مكنسته ناظراً إليه.

كان منظف الشوارع هذا، الذي كان المكان الذي ينمو فيه الفطر يقع في نطاق مسؤوليته، شاباً نحيلاً بنظارتين طبيتين. كان اسمه اماديجي، وكان ماركوفالدو يكن له مشاعر غير ودية منذ وقت طويل، لربما بسبب هاتين النظارتين اللتين تتفحصان أرصفة الشوارع باحثتين عن أي أثر للطبيعة ليستأصله بمكنسته.

كان ذلك اليوم يوم السبت، وقد أنفق ماركوفالدو نصف نهاره يطوف بتلك المنطقة القذرة ذات الرائحة النتنة،مراقباً منظف الشوارع والفطر عن بعد، حاسباً المدة التي يستغرقها نضج هذا الفطر.

تلك الليلة، أمطرت السماء فنهض ماركوفالدو مثل الفلاحين بعد أشهر عديدة من الجفاف تملؤه البهجة لدى سماعه أول قطرة من قطرات المطر. كان هو الشخص الوحيد في المدينة الذي جلس في فراشه ودعا عائلته: «إنها تمطر! إنها تمطر!»، واستنشق بعمق رائحة الغبار المبلل والرائحة الطينية الطازجة الآتية من الخارج. وفي الفجر ـ يوم الأحد ـ استعار ماركوفالدو سلة وهرع مع أطفاله إلى المنطقة في الحال. كان الفطر يشمخ برؤوسه العالية فوق سطح الأرض الغارقة بالمطر. أطلقوا صيحة ابتهاج «هراه!»، وبدأوا يجمعون الفطر.

Twitter: @ketab_n

قال ميشلينو: «أنظر ياأبي كم جمع ذلك الرجل الذي هناك،» ورفع والده رأسه ليرى أماديجي واقفاً بالقرب حاملاً أيضاً سلة مليئة بالفطر تحت ذراعه.

قال منظف الشوارع: «آه، أنت أيضاً تجمع الفطر. إذن فهو صالح للأكل. لقد التقطت بعضاً منه ولكنني لم أكن متأكداً... هناك أسفل الجادة نمت فطور أخرى أكبر من هذه... والآن، وقد تأكدت أنها صالحة للأكل سأخبر أقاربي، لقد تركتهم هناك يتجادلون فيما إذا كانت فكرة جيدة أن يقوموا بجمع الفطر أم لا...». ثم انطلق مسرعاً.

أذهلت المفاجأة ماركوفالدو فوقف غير قادر على الكلام: فطورٌ أخرى أكبر لم يلحظها، ياله من حصاد سيء يُسْلب منه هكذا تحت سمعه وبصره. تجمد للحظة يملؤه الغضب والغيظ، ثم ـ وكما يحدث أحياناً ـ قاده هدوء انفعاله الشخصي إلى شعور بالكرم والسخاء. في تلك الساعة كان العديد من الناس ينتظرون الترام، حاملين المظلات بايديهم لأن الجو كان مايزال ندياً غير مستقر. صرخ ماركوفالدو على الجمع في الموقف: «هي، أنتم! هل تريدون أن تأكلوا فُطْراً مقلياً هذه الليلة؟ إن الفطر ينمو هنا قرب الشارع! هلموا! هناك الكثير من الفطر لنا جميعاً!». وانطلق في أثر أماديجي يتبعهما صف طويل من الناس.

لقد وجدوا جميعاً الكثير من الفطر، ولأنهم لا يملكون سلالاً فتحوا مظلاتهم واستعملوها لجمع الفطر. علق أحدهم قائلاً: «من الممتع أن نقيم وليمة كبرى لنا معاً!». لكن، وبدلاً عن ذلك، أخذ كل واحد منهم نصيبه وعاد إلى البيت.

على أي حال، لم يمر وقت طويل حتى عادوا ليروا بعضهم بعضاً؛ ففي ذلك المساء تجمعوا في عنبر واحد من المستشفى بعد أن أجريت لهم جميعاً عمليات غسيل المعدة. لم تكن حالات التسمم خطيرة لأن كمية الفطر التي أكلها كل واحد منهم كانت قليلة.

أما ماركوفالدو وأماديجي فقد احتلا سريرين متجاورين يحملق أحدهما في الآخر.

Twitter: @ketab_n

الصيف

٢ . إجازة على مقعد حديقة

في طريقه إلى العمل كل صباح كان ماركوفالدو يسير تحت الأوراق الخضراء للميدان ذي الأشجار، وهو جزء من حديقة عامة تقع على ملتقى أربعة شوارع. كان يشخص بنظره من خلال أغصان شجرة كستناء الحصان[1] التي كانت تبلغ في تلك النقطة أعلى درجة من الكثافة والتشابك ولم تكن لتسمح إلاّ بمرور خيوط قليلة من أشعة الشمس الصفراء لتخترق الظلال الشفافة بالنسغ، ويأخذ بالاستماع الى الصخب الخفيض للعصافير المختفية بين الأغصان. بدت هذه العصافير له ملائكة، وقال لنفسه: «آه، لو استطيع ولو لمرة واحدة، أن استيقظ على زقزقة العصافير بدل الاستيقاظ على صوت المنبه وبكاء الصغير بولينو وزعيق زوجتي دوميتيلا!»، أو أنه يقول: «ليتني استطيع النوم هنا، بمفردي، تحت هذه الظلال الخضراء الندية، لا داخل حجرتي الضب الحارة، هنا وسط الصمت لا وسط شخير عائلتي بأكملها وكلامها أثناء النوم وأصوات عربات الترام السريعة التي تعبر الشارع أسفل المنزل؛ هنا في الظلام الطبيعي لليل لا في الظلام المصطنع للستائر المسدلة التي تخترقها الأضواء المتوهجة؛ آه لو استطيع أن أرى الأوراق الخضراء والسماء عندما افتح عيني [في

(١) Horse chestnut كستناء الحصان ـ نوع من الشجر. (المورد).

Twitter: @ketab_n

الصباح]!». بهذه الأفكار كان ماركوفالدو يبدأ ساعات عمله الثماني وساعات عمله الاضافية كعامل غير ماهر.

في ركن من الميدان، وتحت قبة من أشجار كستناء الحصان كان هناك مقعد منعزل نصف مختفٍ، وقد اختاره ماركوفالدو ليكون مقعده الخاص به. وفي مثل هذه الليالي الصيفية، في الغرفة التي ينام فيها خمسة من أفراد عائلته، وعندما لم يكن ليستطيع النوم كان يحلم كما يحلم المتشردون بسرير في قصر. وفي إحدى الليالي، بينما كانت زوجته تشخر وأطفاله يركلون أغطيتهم نياماً، انسلّ من الفراش بهدوء وارتدى ملابسه ودس وسادته تحت ذراعه، وغادر بيته متجهاً إلى الميدان.

هناك الجو باردٌ وآمنٌ. كان يحس بالنكهة المميزة لألواح الخشب التي كان خشبها ـ كما يعرف جيداً ـ ناعمًا ومريحاً، وأفضل بكثير من فراشه الممدد على سريره؛ سينظر إلى النجوم لحظة ثم يغلق عينيه في نوم يعوضه عن كل الاهانات التي تعرض لها طوال اليوم.

حين وصل كان الجو بارداً وآمناً، ولكن المقعد لم يكن فارغاً. كان يحتله اثنان من العشاق ينظر كل منهما في عيني الآخر. انسحب ماركوفالدو بحذر، وفكر: «الوقت متأخر. بالتأكيد لن يقضيا هذه الليلة في الخارج! سوف ينتهيان عمّا قليل من قبلهما ومناجاتهما.»

لكن العاشقين لم يكونا يتناجيان ويتبادلان القبل بل كانا يتشاجران. وعندما يبدأ العشاق الشجار فليس باستطاعتنا أن نعرف كم سيمر من الوقت حتى ينتهيا.

كان يقول لها: «لماذا لا تعترفين أنك حين قلتِ ما قلتِ كنت تعلمين أنك سوف تجرحينني ولن تفرحني الطريقة التي اصطنعت بها تفكيرك؟».

أدرك ماركوفالدو أن الأمر سيستغرق وقتاً.

أجابت الفتاة كما توقع ماركوفالدو: «لا لن اعترف بهذا!».

ـ «لماذا لا تعترفين؟».

ـ «لن اعترف أبداً!».

«اللعنة!». فكر ماركوفالدو، وذهب في نزهة يتمشى قليلاً ووسادته تحت إبطه. تمشى ونظر إلى القمر الذي كان كبيراً مكتملاً فوق الأشجار والمنازل.

Twitter: @ketab_n

عاد باتجاه المقعد تاركاً مسافة قصيرة بينه وبين العاشقين خوفاً من إزعاجهما. لكنه في الحقيقة كان يرغب في مضايقتهما قليلاً وإقناعهما بالذهاب بعيداً. ولكنهما كانا غارقين في جدل حاد مما جعلهما يغفلان عن رؤيته.

ـ «أنت تعترفين إذن؟».

ـ «كلا، كلا، أنا لا اعترف بشيء!».

ـ «ولكن ما الذي يضيرك إن اعترفت؟».

ـ «حتى لو اعترفت ببعض الأشياء فلن اعترف بكل ما تريدني أن اعترف به».

عاد ماركوفالدو لينظر إلى القمر ثانية، ثم ذهب إلى إشارة المرور البعيدة قليلاً. كان الضوء الأصفر يلمع باستمرار، يضيء وينطفيء. القمر بشحوبه الغريب أيضاً أصفر، ولكنه أخضر، في أعماقه، وكذلك أزرق؛ وضوء إشارة المرور ذو لون أصفر معتاد. القمر ساكن يرسل أشعته بهدوء مختفياً هنا وهناك خلف بعض الغيوم الصغيرة التي تسمح له بجلال أن يختفي وراء أكتافها؛ أما إشارة المرور فتراوح مكانها، تضيء وتنطفيء، تنبض بحياة مزيفة، مرهقة ومستعبدة

عاد ماركوفالدو ثانية ليرى فيما إذا كانت الفتاة قد اعترفت بشيء. ولكن هيهات: لم تكن الفتاة قد اعترفت بشيء. في الحقيقة، لم تكن الفتاة هي من رفض أن يعترف؛ بل كان هو. لقد تغير الموقف كلياً، وكانت هي من يعيد ويكرر عليه: «إذن، فأنت تعترف؟»، وكان هو يجيبها باستمرار بأنه لا يعترف. وقد مضت نصف ساعة وهما على هذه الحال، وفي النهاية اعترف هو أو أنها هي التي اعترفت؛ على كل حال، فقد رآهما ماركوفالدو ينهضان ويسيران معاً يداً بيد.

ركض إلى المقعد ورمى بنفسه عليه؛ ولكن خلال فترة انتظاره كان قد فقد شيئاً من حماسته وشعوره بالمتعة التي كان يتوقع أن يجدها هناك، وسريره في البيت، كما يتذكر الآن، لم يعد صُلْباً كما كان. ولكن هذه أمور تافهة إذا ما قيست بتصميمه على الاستمتاع بهذه الليلة في الهواء الطلق. غرس وجهه في الوسادة وهيأ نفسه لنوم من النوع الذي لم يعد معتاداً عليه منذ فترة طويلة.

والآن، لقد وجد الوضع المريح، ولم يكن ليزحزح جسده قيد أنملة مهما

Twitter: @ketab_n

حدث في العالم، ولكنه، مع ذلك، أمر في غاية السوء أنه عندما يستلقي في هذا الوضع لا يستطيع نظره أن يقع على مشهد الأشجار والسماء فقط حتى يغلق عينيه على مشهد هدوء الطبيعة المطلق عندما يداهمه النوم. قبالته، وعلى مسافة قريبة، كانت هناك شجرة يتلوها سيف جنرال يتدلى من نصبه التذكاري، ثم شجرة اخرى، ولافتة إعلانية، وبعدها شجرة ثالثة، ثم، وعلى بعد أكبر، ذلك القمر الزائف الذي يومض؛ إشارة المرور التي مازالت تضيء بضوء أصفر، أصفر، أصفر.

وينبغي أن يقال إن جهاز ماركوفالدو العصبي كان في غاية السوء في النهاية، حتى إنه عندما أصبح على غاية من التعب والانهاك، كان حدوث أي شيء تافه صغير قادراً على ابقائه مستيقظاً؛ فقط ما كان عليه إلّا أن يفكر أن شيئاً ما يزعجه حتى يطير النوم من عينيه. وما يضايقه الآن هو إشارة المرور التي تضيء وتنطفيء باستمرار. كانت على مبعدة، عيناً صفراء تغمز وحيدة: لم تكن شيئاً يستحق أن يهتم به أحد. لكن ماركوفالدو كان يشعر بانهاك عصبي: حدق في تلك العين التي تومض وردد لنفسه: «كيف لي أن أنام وذلك الشيء هناك، كيف لي أن أنام!».

أغمض عينيه وبدا أنه يشعر بذلك الوميض المقيت تحت جفنيه؛ أغلق عينيه تماماً فرأى عشرات من الإشارات الضوئية؛ ثم فتح عينيه ثانية ليرى الأمر على ما هو عليه. نهض، كان عليه أن يضع ستارةبينه وبين الاشارة الضوئية. مشى باتجاه النصب التذكاري للجنرال وتطلع حوله. عند قاعدة التمثال وجد اكليلاً من الزهور، جميلاً، وكثيفاً، ولكنه جاف ومتفسخ الآن، وعلى الاكليل شريط باهت كتب عليه: «الذكرى السنوية الخامسة عشرة للنصر المجيد». تسلق ماركوفالدو النصب، رافعاً الاكليل، وعلقه على سيف الجنرال.

في ذلك الوقت كان الحارس الليلي تورناكوينسي يطوف بدراجته حول الميدان، وحين شاهده ماركوفالدو اختفى خلف النُصُب، ولكن تورناكوينسي رأى ظل النصب يتحرك على الأرض فتوقف يملؤه الشك. تمعن في الاكليل المعلق بالسيف مدركاً أن هناك شيئاً ما في غير محله ولم يتوصل إلى معرفة ذلك الشيء، فصوب مصباحه الضوئي نحو الاكليل وقرأ: «الذكرى السنوية الخامسة عشرة للنصر المجيد»، فاحنى هامته باحترام وانصرف.

Twitter: @ketab_n

وحتى يعطيه الفرصة للانصراف، دار ماركوفالدو دورة أخرى حول الميدان. في شارع مجاور كان هناك فريق من العمال يقومون باصلاح تحويلة خط الترام. في الليل، في تلك الشوارع المهجورة تحتشد هذه المجموعات الصغيرة من الرجال على ضوء المصابيح الملتحمة، أصواتهم تعلو وتنخفض، يسترقون النظر مثل أناس يعدون أموراً لا ينبغي لناس النهار أن يعلموا عنها شيئاً. اقترب ماركوفالدو قليلاً ووقف لينظر إلى اللهب وحركة العمال، بانتباه مُريب. كانت عيناه تضيقان شيئاً فشيئاً بفعل النعاس. فتش عن سيجارة في جيبه ليظل مستيقظاً، لكن لم يكن معه عود ثقاب. سأل العمال: «من يعطيني ولاعة؟». قال له رجل يحمل فرد لحام يتطاير منه الشرر: «يمكنك استخدام هذا لاشعال سيجارتك».

توقف عامل آخر وناوله سيجارة مشتعلة وقال: «هل تعمل في الليل أيضاً؟».

قال ماركوفالدو: «كلا، أنا أعمل في النهار.»

«إذن ماذا تفعل في هذا الوقت من الليل؟ إننا على وشك الانتهاء.».

عاد ماركوفالدو ثانية إلى المقعد. تمدد عليه. الآن أصبحت إشارة المرور بعيدة عن عينيه، وكان باستطاعته أن يذهب في النوم أخيراً.

لم يلحظ الضجة من قبل. أما الآن، فقد ملأ ذلك الأزيز المقيت الذي يشبه صرخة مكتومة وكشطاً لا ينتهي، ويشبه حكاكاً أيضاً، ملأ أذنيه تماماً. وليس هناك من صوت يقطع القلب مثل صوت هذه الشعل الملتهبة، الذي يشبه صوت صرخة مكتومة. دون أن يتحرك دفن ماركوفالدو وجهه في الوسادة، ولم يجد أي مخرج يخلصه من ذلك الصوت، واستمرت الضجة لتغطي على المشهد الذي يلمع فيه اللهب الرمادي،تنطلق منه الشرارات الذهبية متطايرة حول الرجال المقرفصين على الأرض يغطون وجوههم بكمامات زجاجية وشُعل اللحام تهتز في أيديهم بارتعاشات سريعة، والظلال المتحركة حول عربة الآلات الموضوعة على عريشة من الأسلاك. فتح ماركوفالدو عينيه واستدار على المقعد، وهو مستلقٍ، ونظر إلى النجوم من خلال الأغصان. كانت الطيور، التي لم تحس بالضجة، تواصل نومها العميق بين الأوراق.

وكي تنام مثل الطيور، ينبغي أن يكون لك جناح تضع رأسك تحته في

Twitter: @ketab_n

عالم من أغصان الشجر معلق فوق عالمك الأرضي ، وتلقي ببعض نظراتك إلى أسفل صامتاً وبعيداً. وعندما تبدأ في رفض وضعك الذي أنت عليه، فلن تعرف أبداً إلى أين سينتهي بك الدرب. والآن، وكي يستطيع ماركوفالدو ان ينام فإنه يحتاج إلى بعض الأشياء؛ ولكنه هو نفسه لم يكن يعرف ماهية هذه الأشياء؛ في هذه اللحظة لم يكن السكون والهدوء كافيين. كان بحاجة أن يعرف قراراً للصوت، أكثر هدوءاً من الصمت، ريحاً خفيفة تعبر أسفل الغابة، خرير مياه يبقبق ويختفي في المروج الخضراء.

لقد تفتق ذهن ماركوفالدو عن فكرة جعلته ينتصب على قدميه. لم تكن فكرة بالمعنى الدقيق تماماً لأن النعاس الذي كان يسيطر عليه جعله غير قادر على التفكير بصورة صحيحة؛ كان استرجاعاً لشيء ذي علاقة بفكرة الماء بانسيابه الهادىء.

في الحقيقة، كانت هناك نافورة غير بعيدة، عمل نحتي مميز من حيث كونه نحتاً وبطريقة جريان الماء فيه، بحوريات، وآلهة حيوانات[1] وآلهة أنهار مطوقة بالنوافير والشلالات الصغيرة، وكأنها جميعاً لعبة مائية. كانت فقط جافة: في الليل، صيفاً، كانوا يغلقونها لأن قناة جر المياه كانت تعمل بصورة أقل فاعلية. تجول ماركوفالدو على غير هدى لفترة قصيرة مثل من يمشي في نومه؛ غريزته فقط، لا إدراكه، قادته لكي يعرف أن للحوض حنفية. وأي إنسان له عينان جيدتا الابصار يستطيع أن يجد ما يبحث عنه حتى ولو كان مغمض العينين. فتح الحنفية: وانطلقت المياه من بين الأصداف، واللحى، وفتحات أنوف الأحصنة، واندفعت نوافير كبيرة، كانت الكهوف المصنوعة تختفي خلف العباءات المتلألئة، وكان صوت المياه يتردد كصوت أرغن في ذلك الميدان الكبير الخالي، بكل تلك الخشخشة وذلك الاضطراب التي يمكن أن يصنعها الماء [المنطلق من عقاله]. كان الحارس الليلي تورناكينسي قادماً على عجلته الفحمية اللون، وهو يضع تذاكره تحت أعقاب الأبواب، عندما شاهد فجأة النافورة كلها تنفجر بالماء أمام ناظريه مثل لعبة نارية سائلة، فكاد يسقط عن مقعده.

---

(١) Fauns

Twitter: @ketab_n

وفي محاولة منه للاستفادة من النعاس الذي بدأ يداعب جفنيه، حاول ماركوفالدو أن يفتح عينيه قدر استطاعته، وانطلق بسرعة عائداً إلى مقعده ملقياً بنفسه عليه. كان يشعر وكأنه ينام على حافة جدول تحيط به الغابات؛ ثم نام.

حلم بغداء، كان الصحن مغطى ليحفظ الباستا[1] ساخنة. أزاح ماركوفالدو الغطاء عن الصحن فرأى فأراً ميتاً ذا رائحة منتنة. تطلع إلى صحن زوجته فرأى فأراً آخر ميتاً، أما أطباق أطفاله فكانت تحوي فئرانا أصغر حجمًا ميتة ومتعفنة. رفع الغطاء عن الوعاء الكبير فوجد قطة ميتة ومتعفنة ملقاة في الصحن على ظهرها رافعة قدميها في الهواء؛ فأيقظته الرائحة المنتنة من نومه.

غير بعيد عنه كانت سيارة جمع القمامة التي تمر في الليل لافراغ صناديق النفايات. وبوساطة ضوء مصابيح السيارة الخافت استطاع ماركوفالدو أن يرى الرافعة المهتزة وأشباح الرجال يقفون على تلة من القمامة، وهم يرشدون ذراعي الرافعة المتصلين بالبكرة مفرغينها في الشاحنة،مُعْملينَ ضربات مجاريفهم، وأصواتهم شرسة ومرتجة مثل حركة الرافعة «إلى الأعلى.. دعها تعمل.. عليك اللعنة...». وكانت هذه الأصوات تتداخل مع صوت الرافعة المعدنية الذي يدق كناقوس، ومحرك السيارة يعلو عندما تتحرك كلما تكررت العملية مرة أخرى.

الآن، وصل ماركوفالدو مرحلة من النعاس جعلت النوم يسيطر عليه، فلم تعد الأصوات تصل إليه، ومهما كانت الأصوات سمجة ومزعجة فقد أخذت تصل إلى سمعه محاطة بهالة من النعومة والصمت، لربما بسبب طبيعة القمامة المحمولة في الشاحنات. لقد كانت الرائحة المنتنة هي ما أبقاه مستيقظاً، رائحة النتانة التي تزيدها حدة فكرة النتن غير المحتملة، حتى إن الأصوات، تلك الأصوات البعيدة الخامدة وخيالات الأضواء وأصوات الشاحنة والرافعة لم تكن تصل عقله كصوت وضوء بل كرائحة نتن. كان ماركوفالدو يهذي محاولاً، دون جدوى، أن يتخيل هذه الرائحة رائحة ورد يعبق في أنفه.

---

(١) الباستا: طبق معين من المعكرونة.

Twitter: @ketab_n

أما توروناكوينسي، الحارس الليلي، فقد أحس بالعرق يتصبب من جبينه وهـو يلمح شكلاً آدمياً يركض على أربع باتجاه حوض الأزهار، ورآه يقطف بعصبية بعض أزهـار الحـوذان[1]، ثم يختفي. فكر، لربما يكون كلباً، وهذه مسؤولية مطاردي الكلاب، أو رجلاً مصاباً بالهلوسة وهذه مسؤولية الطبيب النفسي، أو أنه ذئب وهذه مسؤولية شخص الله يعلمه ولكنه بالتأكيد لا يقع في نطاق مسؤوليته هو؛ ثم انعطف باتجاه الزاوية.

في أثناء ذلك، وضع ماركوفالدو حزمة زهور الحوذان على أنفه، وهو عائد إلى مكان نومه، محاولاً أن يملأ أنفه تماماً برائحتها: ولكنه لم يكن ليشم إلاّ القليل من رائحـة تلك الـزهور التي تفتقر إلى الرائحة. كانت رائحة الندى والأرض والعشب الذي ديس عليه بَلسمًا شافياً. بدد فكرة القمامة التي تستحوذ عليه ونام. كان الوقت يقارب الفجر.

لم يستقيظ إلا عندما ملأ ضوء الشمس السماء واخترق الأشجار وسقط على عينيه نصف المغمضتين. ولم يستطع ماركوفالدو أن يعاود النوم لأن برودة حادة جعلته يقفز على قدميه وهو يرتجف: لقد بللت جداول الماء المنطلقة من خرطـوم المياه، الذي يستعمله عمال حدائق المدينة لسقي أحواض الزهور، ملابسـه. كانت عربات الترام والشاحنات وعربات اليد واللوريات والعمال بدراجـاتهم النارية تنطلق باتجاه المصانع، وكانت أصوات مصاريع الأبواب ونوافذ البيوت وهي تفتح مسموعة ولمعان النوافذ الزجاجية يتألق أمام عينيه. فانطلق ماركوفالدو نحو عمله بفمه المتخشب وعينيه اللتين لا يستطيع فتحهما، مرتبكاً متحيراً بظهره المتصلب ووركه المرضوض.

---

(١) Buttercup : الحوذان: عشب ذو زهر اصفر. (المورد).

Twitter: @ketab_n

٣ . الحمام البلدي

الـدروب التي تعبرها الطيور المهاجرة، شمالاً أو جنوباً، خلال فصلي الخـريف والـربيع، نادراً ما تمر بالمدينة. إنها تشق الغيوم العالية عابرة فوق الحقول والمرتفعات و أطراف الغابات، وفي مكان ما تبدو هذه الطيور وكأنها تتبـع الخط المتعرج لنهر أو أخدود واذٍ؛ وفي مكان آخر تتبع المسارات الخفية للريح. ولكنها تنحرف مبتعدة حالما تبدو لها أعالي بنايات المدينة.

ولكن، ذات يوم، ظهر في سماء المدينة في فصل الخريف سرب من طيور دجاج الأرض، وكان الشخص الوحيد الذي شاهد السرب ماركوفالدو الذي يمشي دائمًا وهو ينظر إلى السماء. كان في ذلك الوقت يقود مركبة صغيرة ذات ثلاث عجلات، وحين شاهد الطيور أطلق العنان لمركبته وكأنه يطاردها في مهمة صيد فانتـازية، مع أن البنـدقية الوحيدة التي استخدمها طوال حياته كانت بندقية التدريب.

كان طوال قيادته لمركبته يتابع بعينيه الطيور وهي تطير، ووجد نفسه على التقاطع، وقد أضاءت الاشارة الحمراء، وسط السيارات؛ وكاد يصطدم بها عنـدمـا توقف على بعد شعرة منها. وبينما كان شرطي المرور الذي يغلي من الغضب يكتب اسمه وعنوانه في دفتره كان ماركوفالدو يبحث بعينيه عن تلك الأجنحة المحلقة في السماء؛ ولكنها كانت قد اختفت.

Twitter: @ketab_n

وحين وصل إلى مقر عمله تلقى توبيخاً شديداً. صاح به رئيس العمال السنيور فيليجيلمو: «ألا تستطيع حتى الآن أن تتعرف على إشارات المرور بشكل صحيح. ما الذي كنت تنظر إليه أيها الأبله». قال ماركوفالدو: «كنت أنظر إلى سرب من دجاج الأرض.».

«ماذا؟». كان السينور فيليجيلمو رجلاً عجوزاً؛ لمعت عيناه، فأخبره ماركوفالدو بالقصة.

قال رئيس العمال، ممتلئاً بالنشاط وناسياً غضبه. «يوم السبت سوف أذهب مع كلبي وبندقيتي للصيد. لقد بدأت هجرة الطيور في أعالي التلال. من المؤكد أن تلك الطيور قد أفزعها الصيادون، مما جعلها تطير فوق المدينة.».

طوال ذلك اليوم لم يتوقف عقل ماركوفالدو عن التفكير. كان يدور مثل طاحونة. «يوم السبت ستكون التلال مليئة بالصيادين. الله وحده يعلم كم عدد الطيور التي ستطير فوق المدينة. إذا تصرفت بشكل سليم فسوف آكل يوم الأحد دجاجة أرضية مشوية».

كان سطح البناية التي يعيش فيها ماركوفالدو مستوياً تعلوه أسلاك معدنية لنشر الغسيل. تسلق إلى السطح مع ثلاثة من أطفاله حاملين معهم علبة دابوق[1] وكيساً من الذرة. وبينما كان الأطفال ينثرون حبوب الذرة في كل مكان قام هو بدهن الحواجز والأسلاك وقواعد المداخن بالدابوق. وقد أفرط في استعمال الدابوق حتى إن فيليبيتو كاد يلتصق بالدابوق وهو يلعب. تلك الليلة، حلم ماركوفالدو بسطح ممتلىء بدجاج الأرض العالق بالدابوق. أما زوجته، الأكثر كسلاً وطمعاً، فقد حلمت ببط محمر يستلقي في المداخن، وحلمت ابنته الحالمة إيسولينا بالطائر الطنّان لتزين بريشه قبعتها، بينما حلم ميشيلينو بطائر من طيور اللقلق.

في اليوم التالي كان واحد من الأطفال يذهب إلى السطح ليستطلع كل ساعة، يطل من الباب لكي يرى فيما إذا كان أحد الطيور قد حط على السلك

---

(١) Birdlime الدابوق: مادة لزجة تطلى بها الاغصان لالتقاط صغار الطير. (المورد)

Twitter: @ketab_n

محاذراً أن يفـزع الطيور؛ ثم يعود إلى أسفل ويقدم تقريره. لم تكن التقارير سارة. ولكن، ومع حلول الظهيرة عاد بييتروشيو وهو يصرخ: «إنها هنا! ياأبي! تعال وأنظر!».

صعد ماركوفالدو إلى السطح ومعه كيس. كانت هناك على السلك حمامة مسكينة علقت بالدابوق، حمامة رمادية من تلك الحمامات الأليفة التي اعتاد الناس على رؤيتها في الميادين العامة، وقد تناثرت حولها حمامات أخرى تأملتها بحزن وهو يحاول تخليص أجنحته من الدابوق الذي حط عليه دون حكمة.

كان ماركوفالدو وعائلته يمصمصون عظام ذلك الحمام الهزيل القليل اللحم المشوي عندما سمعوا نقراً على الباب.

كانت تلك هي خادمة صاحبة المنزل. قالت «السنيورا تريدك! تعال في الحال!».

كان ماركـوفالدو قلقاً جداً، إذ أنه قد تأخر عن دفع الايجار مدة ستة أشهر، وكان خائفاً من الطرد من البيت. ذهب ماركوفالدو إلى بيت السنيورا في الطابق الرئيسي، واثناء دخوله حجرة الجلوس شاهد زائراً جالساً: الشرطي ذا الوجه القرمزي (الغاضب).

قالت السنيورا: «تعال ياماركوفالدو. لقد اخبرت أن في سطح البيت شخصاً يصطاد حمام المدينة. هل تعرف شيئاً عن الأمر؟».

أحس ماركوفالدو وكأنه قد تجمد. وفي تلك اللحظة سُمِعَ صوت امرأة «سنيورا! سنيورا!»

«ماذا هناك ياغيندالينا؟»

دخلت الغسـالـة وقالت: «لقد صعدت إلى السطح لأنشر الغسيل، ولكن الغسيل كله التصق بالاسلاك. وعندما حاولت أن أجذبه تمزق. لقد تلف الغسيل. ألا تعرفين السبب ياسيدتي؟».

وضـع ماركوفالدو يده على معدته وضغط عليها وكأن لديه مشكلة في الهضم تسبب له آلاماً في بطنه.

Twitter: @ketab_n

٤ . المدينة التي ضاعت في الثلج

ذلك الصباح ايقظ الصمت ماركوفالدو. انتشل نفسه من سريره وهو يشعر أن شيئاً ما غريباً في الجو. لم يستطيع أن يحدد الوقت إذ كان الضوء المتسلل من شقوق النافذة مختلفاً عن ضوء ساعات النهار والليل المعتاد. فتح النافذة: لقد اختفت المدينة، وحلت محلها صحيفة بيضاء من الورق. ضيق ما بين عينيه، فرأى خلال البياض بعض خطوط ممحوة ذات علاقة بذلك المشهد المألوف: النوافذ والسطوح وأعمدة النور كانت موجودة ولكنها ضاعت تحت الثلج الذي استقر فوقها خلال الليل.

صرخ ماركوفالدو منادياً زوجته: «الثلج!»؛ لقد أراد أن يصرخ لكن صرخته كانت مكتومة. فكما تساقط الثلج على الخطوط والألوان والمناظر تساقط على الضجيج، أو بالأحرى على كل إمكانية لاحداث الضجيج؛ والأصوات في الفضاء المطبق المعزول لا تتردد.

ذهب إلى العمل مشياً على الأقدام بعد أن عطل الثلج خطوط الترام. وهو يشق طريقه عبر الشارع كان يحس بحرية لم يحس بها من قبل. لقد اختفت كل المعالم والحدود بين الشوارع والأرصفة؛ ولم تعد العربات قادرة على المرور، وشعر ماركوفالدو أنه سيد الموقف، حر في أن يمشي وسط الشارع وأن يدوس أحواض الورود وأن يجتاز الخطوط المعدة للمشاة ويمشي بشكل متعرج. إنه

Twitter: @ketab_n

يستطيع فعل ذلك رغم أنه يغوص في الثلج حتى ركبتيه ويشعر بالثلج يتسلل إلى جواربه.

كانت الشوارع والطرقات تمتد أمامه مهجورة وبلا نهاية مثل الصدوع المبيضة بين صخور الجبال. ولم يكن يستطيع التأكد فيما إذا كانت هذه المدينة المختفية تحت ذلك الغطاء هي نفسها ذات المدينة أم أن مدينة أخرى قد حلت محلها في الليل. من يستطيع القول أن تحت هذه الأكوام البيضاء مازالت هناك مضخات بنزين وأكشاك لبيع الصحف ومحطات للترام أم أن هناك فقط أكياساً فوق أكياس من الثلج؟ وبينما كان ماركوفالدو يتابع سيره حلم بأنه ضاع في مدينة أخرى: وبدلاً من ذلك قادته قدماه مباشرة إلى المكان المعتاد لعمله اليومي، إلى قسم الشحن، وعندما اجتاز العتبة أحس ماركوفالدو بالدهشة إذ وجد نفسه بين تلك الجدران وكأن التغيير الذي ألغى العالم الخارجي قد استثنى شركته فقط.

كانت بانتظاره مجرفة أطول منه. وبينما كان رئيس القسم السنيور فيليجيلمو يناوله إياها قال له: «إزالة الثلج عن الرصيف المقابل لبنايتنا هو من مسؤوليتنا. وهذا العمل موكلٌ إليك». أخذ ماركوفالدو المجرفة وخرج ثانية.

لم تكن إزاحة الثلج لعبة خصوصاً والمعدة خاوية؛ ولكن ماركوفالدو أحس أن الثلج مثل صديق، عنصر مما جدران هذا القفص الذي انسجنت حياته داخله، وانطلق إلى العمل بحماس مالئاً مجرفته بالثلج قاذفاً إياه من على الأرصفة إلى وسط الشارع.

أما سيجسميندو العاطل عن العمل فقد شعر بالامتنان للثلج إذ اشتغل مع الفريق الذي كونته البلدية لإزالة الثلج ذلك الصباح، ولديه الآن عدة أيام أخرى من العمل المضمون. ولكن هذا الشعور وبدلاً من أن يفجر لديه مشاعر خيالية كماركوفالدو، قاده إلى القيام بحسابات دقيقة للاقدام المكعبة من الثلج الذي سيجرفه ليزيل آثار الثلج من مساحة الأقدام المربعة. بكلمات أخرى، كان يهدف إلى إثارة انتباه رئيس فريقه، ولذا فقد كان طموحه السري أن يتقدم في هذه الحياة.

استدار سيجسميندو فماذا رأى؟ لقد رأى المساحة التي نظفها وقد تغطت

Twitter: @ketab_n

بالثلج ثانية بالضربات الفوضوية لشخص يجرف الثلج عن الأرصفة. لقد أصيب سيجسميندو بالصرع. ركض وواجه الرجل الآخر موجهاً مجرفته المليئة بالثلج إلى صدر الرجل الغريب. «هيْ! أنت! هل أنت من يرمي بالثلج هناك؟» قال ماركوفالدو: «ماذا؟» ولكنه اعترف: «آه، ربما».

«حسناً، إما أن تعيد ذلك الثلج بمجرفتك إلى مكانه وإما أنني سأجعلك تأكل هذا الثلج إلى آخر ندفة منه».

«ولكن علي أن انظف الرصيف.»

«وعلي أن أنظف الشارع. إذن؟».

«أين أضع الثلج؟»

«هل تعمل مع البلدية؟»

«كلا، بل أعمل مع سباف وشركاه.»

علّم سيجسميندو ماركوفالدو كيف يكوم الثلج على حافة الرصيف، ونظف ماركوفالدو شريطه كاملاً. ووقف الرجلان قانعين يتأملان انجازهما غارزين مجرفتيهما في الثلج.

وبينما كانا يشعلان سيجارة لكل منهما تقدمت جرافة للثلج رافعة كومتين ثلجيتين كبيرتين وكومتهما على جانبي الرصيف. كان كل صوت في ذلك الصباح حفيفاً وخشخشة مجردين: وفي الوقت الذي رفع الرجلان رأسيهما وجدا أن المنطقة التي نظفاها كلها قد غمرت ثانية بالثلج. «ما الذي حدث؟ هل عاد الثلج ينهمر؟». ونظرا باتجاه السماء. كانت الآلة بفراشيها الضخمة الدائرة تستدير عند المنعطف.

تعلم ماركوفالدو كيف يجمع الثلج على شكل جدار صغير متماسك، فلو استمر في عمل جدران صغيرة منه فسوف يستطيع ان يصنع شوارع له وحده هو الوحيد الذي يعرف أين تقود شوارع سوف يضيع كل الناس فيها. يستطيع إعادة بناء المدينة، وأن يكوم جبالاً عالية من الثلج مثل البيوت لا يستطيع أحد تمييزها عن البيوت الحقيقية. لكن ربما تكون كل البيوت الآن قد تحولت إلى بيوت ثلجية من الداخل والخارج؛ مدينة كاملة من الثلج بمعالمها التذكارية وأبراجها واشجارها، مدينة يمكن هدمها بالمجارف وإعادة بنائها من

Twitter: @ketab_n

جديد بطريقة مختلفة.

في نهاية الرصيف، وعند نقطة معينة منه، كانت هناك كومة من الثلج. كان ماركوفالدو على وشك أن يساوي ارتفاعها بارتفاع جدرانه الصغيرة حين أدرك أنها سيارة: السيارة الفخمة، التي يملكها السيد البوينو رئيس مجلس الادارة، مغطاة تماماً بالثلج. وإذ كان الفرق بين السيارة وكومة الثلج ضئيلاً جداً بدأ ماركوفالدو يصنع بمجرفته شكلاً لسيارة ثلجية. لقد كان ناتج ذلك شيئاً خارقاً بحيث لا تستطيع أن تقول أيهما هو السيارة الحقيقية. وكي يضع اللمسات النهائية على عمله استخدم ماركوفالدو بعض النفايات التي أصطدمت بها مجرفته: علبة صدئة استخدمها نموذجاً يشبه الضوء الأمامي؛ واستخدم حنفية قديمة كمقبض للباب.

بعد لحظات انحنى البوابون وخرج رئيس مجلس الادارة السيد ألبوينو يتبعه المرافقون والحاشية. توجه حالاً إلى سيارته، وبسبب قصر نظره، أمسك بالحنفية الظاهرة،سحبها وحنى قامته وخطا داخل الثلج الذي كان يصل إلى مستوى عنقه.

كان ماركوفالدو قد استدار إلى زاوية الشارع في ذلك الوقت واتجه إلى الساحة لكي ينظفها.

لقد صنع الأولاد في الساحة رجلاً من الثلج. قال أحدهم: «إنه بحاجة إلى أنف. ماذا سنستعمل لذلك؟ جزرة».

وركضوا إلى المطابخ ليأخذوا جزرة من بين الخضار.

تأمل ماركوفالدو رجل الثلج. «هناك تحت الثلج لا تستطيع ان تفرق بين الثلج وبين ما يخفيه تحته. عدا حالة واحدة: الانسان؛ فمن الواضح والجلي أنني أنا الانسان وليس هذا الرجل الثلجي.»

وإذ كان مستغرقاً في تأملاته لم يسمع رجلين يصرخان عليه من سطح إحدى البنايات. «أنت أيها السيد. أبتعد عن الطريق». كانا من الرجال المسؤولين عن إزاحة الثلج عن اسطح المنازل وفجأة سقطت كتلة من الثلج تزن حوالي ثلاثمائة كيلوغرام تقريباً فوقه.

عاد الأطفال يحملون الجزر المسلوق. «أوه، لقد صنعوا رجل ثلج

Twitter: @ketab_n

آخرا». في الساحة كان هناك رجلان من الثلج متماثلان يقفان جنباً إلى جنب.

«سوف نضع لكل رجل منهما أنفاً!» ودفعا بالجزرتين في رأس كل من رجلي الثلج.

ميتاً أكثر منه حياً شعر، وهو مدفون تحت طبقة الثلج يكاد يتجمد، أن بعض الغذاء يصله، فبدأ يلوكه.

«هِي، أنظروا! لقد ذهبت الجزرة!». كان الأطفال خائفين جداً. ولكن أشجع الأطفال لم يفقد شجاعته. كان معه أنف آخر: قرن من الفلفل دفعه في رأس رجل الثلج. ولكن رجل الثلج أكله أيضاً. ثم حاولوا أن يضعوا له أنفاً من الفحم، قطعة كبيرة من الفحم. ولكن ماركوفالدو قذفها بكل ما أوتي من قوة من فمه. عندما صرخ الأطفال «النجدة! إنه حي! إنه حي!». وولوا هاربين على طرف الساحة كان هناك حاجز من القضبان المتصالبة ومنه انطلقت سحابة دافئة من الدخان. مُثقلاً بالرجل الثلجي الذي يغطيه سار ماركوفالدو ووقف هناك: ذاب الثلج فوقه وأخذ يقطر في جداول صغيرة على ملابسه: ظهر ماركوفالدو اخيراً منتفخاً ومُصاباً بالبرد.

أخذ مجرفته وأخذ يعمل كي يدفيء نفسه وهو ينظف الساحة. كان يشعر بعطسة تسد أنفه رافضة ان تخرج وتريحه. استمر ماركوفالدو يعمل بمجرفته، جفناه مغمضان تقريباً، والعطسة قابعة في أعلى أنفه. وفجأة خرجت العطسة «آآآآآه...» كانت بعلو صوت الرعد، «آتشوووا» أعلى من انفجار أحد المناجم. واندفع ماركوفالدو ليصطدم بأحد الجدران.

لقد أحدثت تلك العطسة، في الحقيقة، اعصاراً شديداً. تطاير الثلج في الساحة مثل عاصفة وارتفع في السماء.

عندما فتح ماركوفالدو عينيه، بعد ذهول شديد، وجد الساحة نظيفة تماماً دون أن يكون فيها رقاقة واحدة من الثلج، وظهر أمام ناظريه المنظر المألوف للساحة، الجدران الرمادية، الصناديق التي في المستودع، أشياء الحياة اليومية، قاسية ومعادية.

Twitter: @ketab_n

الربيع

٥ . العلاج بالدبابير

رحل الشتاء تاركاً خلفه آلاماً روماتزمية، وبدأت أشعة منتصف النهار الخافتة تنشر البهجة. كان ماركوفالدو يقضي بعض ساعات يراقب نمو أوراق الأشجار والنباتات وهو جالس على مقعد في انتظار العودة ثانية إلى العمل. رجل عجوز ضئيل كان يأتي ليجلس إلى جانبه، ملتفاً بمعطفه المرقع: إنه السنيور ريزيبري العجوز المتقاعد الذي يعيش وحيداً في هذا العالم والزائر الدائم لكل مقعد مشمس في الحديقة. من وقت لآخر كان السنيور ريزيبري يهتز ويصرخ «آوا» ويلتف أكثر في معطفه. كان كتلة من أمراض الروماتيزم وآلام الظهر التي تتكالب عليه في فصل الشتاء البارد الرطب وتلازمه في البقية الباقية من العام. كان على ماركوفالدو، كي يواسيه ويخفف عنه، أن يشرح له المراحل المختلفة لآلامه الروماتيزمية والآلام الروماتزمية لزوجته وابنته الكبرى ايسولينا، الفتاة المسكينة التي أصابها الهزال من جراء تلك الآلام.

كل يوم، كان ماركوفالدو يحمل غذاءه الملفوف بأوراق الجرائد؛ يجلس على المقعد ويفك أوراق الجريدة المتجعدة ويعطيها للسنيور ريزيبري الذي سيمسكها بنفاد صبر قائلاً: «دعنا نَرَ ما هي الأخبار». كان يقرؤها بالاهتمام نفسه حتى ولو كان قد مضى على نشر الصحيفة عامان.

وذات يوم صادف مقالة تتحدث عن طريقة لعلاج الرومايتزم عن طريق

Twitter: @ketab_n

استخدام سم النحل.

قال ماركوفالدو الذي يميل إلى التفاؤل دائمًا: «من المؤكد أنهم يقصدون عسل النحل».

قال ريزيبري: «كلا، بل السم. إنهم يقولون هنا إنه: السم الموجود في إبرة النحل». وقرأ بضعة مقاطع بصوت عالٍ. مقطعان من المقاطع ناقشا ما يتعلق بالنحل وفوائده ومنافعه وكذلك الكلفة البسيطة لهذا النوع من العلاج.

بعد ذلك، وبينما كان ماركوفالدو يسير في الشوارع كان يصيخ السمع لكل أزة يسمعها ويشخص بنظره ملاحقاً كل حشرة تطير حوله. وهكذا بدأ يدرس ويتفحص الدبابير المتطايرة من حوله ببطونها المخططة باللونين الأصفر والأسود حيث تعيش، في جوف جذع شجرة: كان خروج الدبابير ودخولها إلى جوف ذلك الجذع يعلن عن وجود خلية كاملة من الدبابير. لذلك بدأ ماركوفالدو عملية صيده. أحضر مرطباناً زجاجياً مايزال أسفله يحتوي على طبقة سميكة من المربى، ووضعه مفتوحاً بجانب الشجرة. بعد قليل زنّ أحد الدبابير وحام حول المرطبان، واستقر داخل المرطبان منجذباً إلى الرائحة السكرية، فهرع ماركوفالدو وغطى المرطبان بغطاء ورقي.

وفي اللحظة التي رأى فيها السنيور ريزيبري بادره قائلاً: «تعال لأعطيك الحقنة!»، وأراه المرطبان وبداخله الدبور السجين الغاضب.

تردد الرجل العجوز، ولكن ماركوفالدو رفض تأجيل التجربة لأي سبب من الأسباب مصراً على البدء بها حالاً، وبلا تردد على المقعد: لم يكن على المريض أن ينزع ملابسه. بمزيج من الخوف والأمل رفع السنيور ريزيبري كم معطفه وجاكيته وقميصه كاشفاً عن جزء صغير من منطقة الحوض حيث يشعر بالألم، وقام ماركوفالدو بوضع فوهة المرطبان على ذلك الجزء وأزال الغطاء الورقي. في البداية لم يحدث شيء؛ لم يتحرك الدبور. هل ذهب الدبور في النوم؟ وضرب ماركوفالدو على أسفل المرطبان كي يوقظه. وكانت هذه الضربة هي ما يحتاج إليه الدبور: إذ أنطلق نحو فوهة المرطبان ولسع السيد ريزيبري في حوضه.

وما أن لامست إبرة الدبور، الجزء المكشوف من جسد (ريزيبري)،

Twitter: @ketab_n

حتى انتفض واقفاً على قدميه، مطلقاً صرخة كبيرة، ثم اخذ يروح ويجيء، كجندي نشيط في طابور العرض، متحسساً المكان المقروص، قاذفاً بعض الشتائم المستنكرة الساخطة غير المفهومة.

اما ماركوفالدو فقد اكتفى بهذه النتيجة، اذ انه لم يسبق له أن رأى هذا العجوز، يقف منتصباً، ونشيطاً كما رآه الآن. ولكن مرور رجل البوليس بالقرب منهما، وتحديقه فيهما، جعل ماركوفالدو يمسك (ريزيبري) من يده، وينطلقان وهما يصفران.

عاد ماركوفالدو إلى البيت، ومعه دبور آخر في المرطبان. وقد كان صعباً عليه ان يتمكن من اقناع زوجته بتلقي العلاج، ولكنه في نهاية الأمر تمكن من اقناعها. وللوهلة الأولى لم تتذمر دوميتيلا إلّا من لسعة الدبور فقط.

استمر ماركوفالدو بصيد الدبابير، وتقديم الحقن لمرضى الروماتيزم، حيث حقن ابنته ايسولينا، وزوجته دوميتيلا مرة أخرى، لأن العلاج المنتظم وحده هو ما سيقود إلى الشفاء. وأخيراً قرر ان يتلقى هو ايضاً حقنة من هذا العلاج. مما حدا بالصغار ايضاً أن يصرخوا: «وأنا أيضاً؛ وأنا أيضاً.».

ولكن ماركوفالدو فضل ان يزودهم بالمرطبانات، ويرسلهم لصيد الدبابير ليوفروا الاحتياجات اليومية من هذا العلاج.

وذات يوم حضر السنيور ريزيبري إلى بيت ماركوفالدو؛ بصحبته عجوز آخر، اسمه كافاليير اومريكو، وهو يجرجر إحدى قدميه، ويطالب بتلقي العلاج على الفور.

تناقل الناس أمر ماركوفالدو، وشاع خبره بينهم، مما جعلهم يتوافدون إلى بيته، لتلقي العلاج، مما اجبر ماركوفالدو على توفير كمية كبيرة من الدبابير في بيته، حيث كان يحتفظ دائمًا بنصف دزينة منها كاحتياط.

كان يأخذ المرطبان، فيقلب فوهته على مؤخرة المريض، مثل حقنة ويسحب الغطاء الورقي، تاركاً الدبور يلسع المريض، ثم يمسح مكان اللسعة، بقطنة مبللة بالكحول، بيدي طبيب خبيرتين غير مترددتين.

اما منزله الذي يتكون من غرفة واحدة، ينام فيها جميع افراد عائلته فقد تم تقسيمه بستارة مؤقتة إلى قسمين، قسم لاستقبال المرضى، وقسم للعلاج،

Twitter: @ketab_n

وفي الجانب الآخر من الغرفة، كانت زوجته تستقبل الزبائن. وتحصل منهم الاجور، اما الاطفال فقد كانوا يأخذون المرطبانات الفارغة راكضين باتجاه خلية الدبابير، لاعادة ملئها من جديد، وحين كانوا يتعرضون للسع أحد الدبابير في بعض الاحيان كانوا يكابرون على انفسهم ويمتنعون عن البكاء، لمعرفتهم الاكيدة ان اللسعة مفيدة لاجسامهم، ولأن مرض الروماتيزم كان قد انتشر بين الناس في تلك السنة، كانتشار الطاعون، ولذا اصبح لعلاج ماركوفالدو شهرة عظيمة.

في عصر احد الأيام، رأى ماركوفالدو ان منزله قد غص بعدد كبير من الرجال والنساء، بعضهم يضغط على ظهره، وبعضهم يمسك خاصرته، وآخرون يتحسسون ارجلهم، بعضهم كانت تظهر عليه مظاهر الفقر، والبعض الآخر ظهرت عليه مظاهر الثراء، وقد جاءوا كلهم مجذوبين بشهرته لتلقي العلاج بسرعة، مما حدا بماركوفالدو ان يستدعي اولاده الثلاثة قائلاً: هيا، خذوا هذه المرطبانات واذهبوا كي تصطادوا اكبر عدد من الدبابير.

اخذ الاولاد المرطبانات وخرجوا بسرعة. كان الجو مشمساً، والدبابير تحوم باعداد كبيرة في الشارع.

بطبيعة الحال، كان الاولاد يصطادون الدبابير على مسافة بعيدة من الشجرة التي توجد فيها خلية الدبابير، ولكن ميشلينو كان قد قرر ذلك اليوم ان يوفر الوقت، وان يصطاد اكبر عدد من الدبابير، فبدأ صيده في مدخل الخلية، قائلاً لاخوته:

ـ هذه هي الطريقة الصحيحة لصيد الدبابير!!.

وقد حاول اصطياد الدبابير عن طريق وضع فوهة المرطبان فوق الدبور لحظة هبوطه مباشرة، ولكن الدبور كان يطير كل مرة بعيداً، ثم يتقدم اكثر اكثر فاكثر من خلال الخلية، وعند وصوله إلى حافة تجويف الشجرة، هم ميشلينو بوضع فوهة المرطبان على الدبور، فشعر بدبورين ينقضان عليه يريدان لسعه في رأسه، فحاول طردهما بيديه، وصرخ من الالم، فسقط المرطبان في فم الخلية، فشعر بالخجل، ولكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، فقد تراجع إلى الوراء، دون ان يمتلك القدرة على الصراخ، لأن سحابة سوداء كثيفة انطلقت

Twitter: @ketab_n

بازيزها خلفه، بحشد من الدبابير الهائجة الغاضبة، وقد سمع اخوته صوته وهو يصرخ راكضاً امام الدبابير، كما لم يركض في حياته، كأنه كتلة من البخار تقذفها الريح، وتطاردها تلك الغيمة السوداء ، التي تشبه كتلة من دخان مدخنة سوداء، لكن إلى اين يمكن ان يتجه الطفل، حين يحس ان شيئاً ما يطارده؟ بالطبع سيتجه إلى بيته، وهذا ما فعله ميشيلينو بالضبط.

المارة في الشوارع، لم يستطيعوا التحقق من ماهية هذا المنظر الذي يشاهدونه بأم اعينهم، فهو عبارة عن شخص يركض، وسحابة تنطلق خلفه عبر الشوارع، يطغى عليها صوت زئير مختلط بأزيز عالٍ.

اما ماركوفالدو، فقد كان يهديء من روع مرضاه قائلاً:

ـ «لحظة من فضلكم، بعد لحظات، ستكون الدبابير هنا.»

وما ان انتهى من كلمته، حتى انفتح الباب، ودخل سرب الدبابير خلف (مشلينو) الذي لم يشاهده احد، والذي ذهب من فوره إلى مغسلة الماء، ووضع رأسه تحتها، اما الدبابير التي ملأت الغرفة، فقد بدأت بلسع المرضى، الذين كانوا يقومون بحركات مدهشة في تحريك اطرافهم الجامدة وهم يحاولون ابعاد الدبابير عن انفسهم وكأنهم في قمة حيويتهم.

بعد ذلك جاءت عربات المطافيء ثم الصليب الأحمر.

اما ماركوفالدو، الذي كان مستلقياً على فراشه في المستشفى، منتفخ الوجه، لدرجة انك لا تستطيع التعرف على ملامحه من لسعات الدبابير، فقد جلس صامتاً، غير قادر على الرد على الاهانات التي كانت تحاصره من جميع الجهات والتي كان يوجهها اليه مرضاه السابقون.

Twitter: @ketab_n

٦ . سبت للشمس والرمل والنوم

قال له طبيب الصحة العام: «من أجل أن تشفى من آلامك الروماتيزمية عليك أن تجرب العلاج بالرمل هذا الصيف». وعملاً بنصيحة الطبيب قام ماركوفالدو في أحد أيام السبت، بعملية استكشاف لضفتي النهر باحثاً عن مكان يجمع بين الرمال الجافة وأشعة الشمس. ولكن أينما كان هناك رمل كانت تسمع قعقعة الجنازير الصدئة. كانت الشباك والرافعات، وهي تعمل بآلات قديمة قدم الديناصورات، تحفر النهر وتفرغ حمولتها الضخمة من الرمل في شاحنات المقاولين التي تقف على ضفتي النهر. انتصب شريط الدلاء الناقل مرتفعاً إلى أعلى ثم تدلى إلى أسفل وهو ينقلب مُفْرغاً حمولته، وارتفعت الرافعات ذات الأعناق الطويلة مثل أعناق طائر البجع ناثرة كتلاً من الطين الأسود الذي استخرجته من قاع النهر. انحنى ماركوفالدو ليلمس الرمل وسحقه على راحة يده؛ كان الرمل مبتلاً، طرياً، مُلوثاً: حتى الطبقة الجافة التي كونتها الشمس كانت تخفي تحتها مباشرة رملاً رطباً ندياً.

أما أولاد ماركوفالدو الذين أحضرهم معه ليقوموا بتغطيته بالرمل، فلم يستطيعوا مقاومة رغبتهم في السباحة، فقالوا: «أبي، أبي، سوف نعوم في النهر! سوف نسبح!».

صرخ ماركوفالدو: «هل انتم مجانين؟ السباحة غير مسموح بها هنا.

Twitter: @ketab_n

سوف تغرقون، سوف تغوصون في النهر مثل الحجارة!» وشرح لهم كيف أن هذه الحفارات التي تخرج الرمل من قاع النهر تترك فيه مناطق فارغة تجذب الماء إلى أسفل مشكلة دوامات وحوامات مائية.

كان لكلمة حوامات وقع سحري عليهم فقالوا «حوامات! أرنا واحدة منها!».

«لا يمكنكم رؤية واحدة منها؛ إنها تجذبكم من أقدامكم وأنتم تسبحون وتجذبكم إلى أسفل».

«لكن ماذا عن ذلك الشيء؟ لماذا لم تجذبه إلى أسفل؟ هل هي قطة؟».

شرح ماركوفالدو «كلا، إنها قطة ميتة تطفو لأن احشاءها ممتلئة بالماء».

سأل ميشلينو: «هل يقبض الحوام على القطة من ذيلها؟».

في مكان آخر من ضفة النهر كان هناك مكان معشب مفتوح على منطقة خالية من الشجر انتصبت فيها آلة لنخل الرمل. كان هناك رجلان ينخلان كومة من الرمل مستخدمين المجاريف، وبالمجاريف نفسها كانا يعبئان الرمل في زورق أسود ضحل، يشبه طوافة، وكان يطفو هناك مربوطاً إلى شجرة صفصاف. كان هذان الرجلان الملتحيان يعملان تحت وهج الشمس الحارقة وهما يرتديان قبعات ومعاطف ممزقة وبالية، وبنطلونين ينتهيان بحواف ممزقة عند الركبتين تاركين أرجلهما وأقدامهما عارية.

في ذلك الرمل الذي ترك لعدة أيام كي يجف ويصبح نقياً ناعمًا خالياً من الشوائب شاحب اللون مثل الرمل الذي نشاهده قرب الشواطىء، أدرك ماركوفالدو ما كان بحاجة إليه. ولكن اكتشافه جاء متأخراً: فقد كانوا ينقلونه إلى ظهر الزورق ليأخذوه بعيداً...

لا، ليس بعد: إذ توقف الرجلان، اللذان كانا يجرفان الرمل وينقلانه، عن العمل وفتحا زجاجة نبيذ وأخذا يتبادلان ارتشاف النبيذ منها مرات عديدة ثم استلقيا في ظل أشجار الصفصاف حتى تمر الساعة التي تبلغ فيها الحرارة أعلى درجاتها.

فكر ماركوفالدو «استطيع أن استغل فترة نومهما، واستلقي على الرمل كي آخذ حماماً شمسياً»، ثم صرخ على أطفاله بصوت خفيض «اسمعوا،

Twitter: @ketab_n

ساعدوني!».

ثم قفز إلى الزورق وخلع قميصه وسرواله وحذاءه ودفن نفسه في الرمل قائلاً لأطفاله: «غطوني بالرمل بواسطة المجرفة! لا، لا تغطوا رأسي؛ إنني أحتاج إليه كي اتنفس، ولذا ينبغي أن يظل خارج الرمل طيلة الوقت!».

كان الأمر بالنسبة للأطفال يشبه بناء قلعة من الرمال. «هل نصنع حيوانات من الرمل؟ كلا، بل قلعة بمتاريس! كلا، كلا، بل سنرسم خطاً ونلعب البِلْية[1]!».

صرخ ماركوفالدو من داخل تابوته الرملي: «اذهبوا الآن. لا، بل ضعوا قبعة ورقية فوق جبهتي وعيني، ثم اذهبوا بعيداً إلى الشاطىء والعبوا بعيداً عنه، وإلاّ سوف يستيقظ الرجلان ويطردانني من هنا.»

اقترح فيلبيتو، وقد أخذ يحل حبل المرسى: «نستطيع أن نسحبك إلى النهر بسحب حبل الزورق من الشاطىء.».

صرخ فيهم ماركوفالدو، وهو عاجز عن الحركة: «إذا لم تذهبوا بعيداً الآن، فسوف تجبرونني على الخروج وضربكم بالمجرفة.»، فانطلق الأطفال راكضين.

سطعت الشمس واشتعل الرمل، واخذ العرق يتصبب من ماركوفالدو تحت قبعته وهو ملقى هناك لا يستطيع الحركة متحملاً هذا الحر الذي يشوي جسده، راضياً كل الرضى، لأنه يدرك انه كلما كان العلاج أكثر إيلاماً كلما كانت فرصة الشفاء أكبر.

بدأ النعاس يداعب اجفانه، واخذ القارب يهتز يمنة ويسرة، بفعل التيار، حيث كان يتجه مرة باتجاه المرساة التي تربطه بالشط، ويعود مرة اخرى إلى عرض النهر، ومع استمرار حركة القارب، بدأ الحبل الذي ابتدأ فيلبيتو بحله، يُحَل، حتى حُلَّ بالكامل واخذ القارب المحمل بالرمل يتحرك في النهر بحرية.

كانت تلك الساعات من أكثر ساعات العصر حَرّاً، كان كل شيء نائمًا:

---

(١) كرة زجاجية صغيرة يلعب بها الاطفال.

Twitter: @ketab_n

الرجل المدفون في الرمل، والعرائش، والموانىء الصغيرة والجسور المهجورة، والبيوت العالية، والنوافذ المغلقة، والجسور المعلقة. كان منسوب الماء في النهر غير مرتفع، ولكن الزورق، الذي كان التيار يتلاعب به، يسير متحاشياً الاصطدام بالحواجز الطينية التي تظهر هنا وهناك، مع ان اية دفعة بسيطة، يمكن ان تقود القارب إلى مكان يرتفع فيه منسوب المياه أكثر.

استيقظ ماركوفالدو من نومه من جراء تلك الخضات والدفعات فشاهد الشمس تملأ السماء، والغيوم القريبة تعبر من فوقه، فقال لنفسه:

ـ كيف تتحرك هذه الغيوم وليس هناك اية نسمة هواء؟!». ثم رأى اسلاك الكهرباء كانت هي الاخرى، تمر من فوقه مر السحاب، فحاول وهو مايزال ملقى تحت ثقل الرمال، ان ينظر إلى جهة ما فرأى ضفة النهر اليمنى الخضراء بعيدة جداً، ورآها وهي تسير بسرعة اما الضفة اليسرى البعيدة عنه ايضاً فقد كانت هي الأخرى تسير بسرعة غريبة، فايقن حينذاك انه قد اصبح في منتصف النهر، مرتحلاً بلا صديق ولا قريب، بلا دفة ولا مجداف، انه وحده مدفون تحت هذا الرمل. لذلك فكر ان ينهض، وان يحاول النزول إلى الشاطيء، او طلب المساعدة، ولكنه توقف عن ذلك، لأنه كان يعرف ان العلاج بالرمل يحتاج إلى عدم الحركة مما جعله يلتزم بالبقاء كما هو اطول مدة ممكنة، حتى لا يخسر لحظة من لحظات العلاج الثمين.

في هذه الاثناء رأى الجسر الذي يعرفه من تماثيله ومصابيحه التي تزين حافته، ومن اقواسه السميكة، التي تعانق السماء، وعند دخوله إلى منطقة الظل التي تلقيها تلك الاقواس على النهر، تذكر ان منطقة الشلالات لا تبعد سوى مئة ياردة عن هذا الجسر، حيث يبدأ قاع النهر بالهبوط، مما سيؤدي إلى سقوط القارب في الشلالات وانقلابه. ونتيجة لذلك سوف يغمر القارب بالرمل والماء، وربما لن يخرج حياً بعد انقلاب القارب. ولكن جل اهتمامه حتى تلك اللحظة كان منصباً على العلاج في حمامه الرملي، الذي سيفقد كل تأثيراته وفوائده على الفور.

وقد جاءت لحظة السقوط التي انتظرها ماركوفالدو حين اهتز القارب عدة هزات، من اسفل إلى اعلى، بعد ان اصطدم بالمياه الضحلة، وباشجار قصب السكر، وبعض الالياف النباتية، ثم اندفع كالسهم إلى قاع النهر، قاذفاً

Twitter: @ketab_n

للاعلى حمولته من الرمل، والرجل الذي كان مدفوناً فيها، حيث انطلق ماركوفالدو كقذيفة موجهة. وفي هذه اللحظة رأى النهر، او على الاصح، لم ير شيئاً منه، بل رأى الجمع البشري الذي يملأ النهر.

في عصر ذلك اليوم من ايام السبت، كان النهرغاصاً بمجموعات كبيرة من الناس، يملأون هذا الشطر منه، كي يسبحوا في مياهه الضحلة التي تصل إلى السرة فقط؛ حيث يلهو الاطفال فيه من جميع الاعمار والنساء السمينات، والشباب الذين يطيشون فوق شبر ماء، وفتيات بالبكيني، والفتوات الذين يعرضون قوتهم، والفرشات والكرات، واطارات السيارات، وقوارب التجديف، والقوارب المطاطية، والقوارب البخارية، وقوارب الانقاذ، ورصيف نادي اليخوت، والصيادون بشباكهم، والصيادون بسناراتهم، والنساء العجائز بشمسياتهم. وشابات بقبعات من القش، وكلاب، كلاب من كل الانواع منها الصغير والكبير. وفي مثل هذا الوضع لا يمكنك ان ترى بوصة واحدة من النهر، وهذا ما حدث لماركوفالدو وهو مقذوف في الهواء، فهو لم يكن يعرف أين سيهبط، هل يهبط على فرشة مطاطية او بين ذراعي امرأة، ذات جمال مهيب. ولكن الشيء الوحيد الذي كان واثقاً منه، ان قطرة ماء واحدة لن تصيب جسده.

Twitter: @ketab_n

الخريف

٧ . السفرطاس

إن متعة مشاهدة هذا الوعاء الدائري المسطح، الذي يسمى بصندوق الغذاء[1]، او السفرطاس، والمكون من عدة اجزاء، تبدأ بغطائه المبروم، الذي تشكل عملية فتحه وفك غطائه، متعة لا تقدر، ولا يمكن التعبير عنها، ذلك ان لعابك يسيل لمجرد فك الغطاء، خاصة حين لا تكون على علم بمحتويات السفرطاس لأن زوجتك هي من يقوم بتحضير الطعام لك كل صباح. وعندما تزيح الغطاء تجد طعامك مرتباً هناك: شرائح اللحم (السجق) والعدس، البيض المسلوق والشمندر، السمك والبولينيت[2] مرتبة في محيط السفرطاس، تماماً كما ترتب القارات على خرائط الكرة الأرضية. وحتى حين يكون الأكل قليلاً، فانه يعطيك انطباعاً ان الطعام كاف ومكتنز. وما إن يفتح الغطاء حتى يستخدم كطبق، اضافة إلى الوعائين الآخرين، مما يعطيك الفرصة لتقسيم الطعام فيهما.

وحين قام العامل اليدوي ماركوفالدو بازاحة الغطاء عن (سفرطاسه) بسرعة، عبقت في أنفه رائحة ما بداخله، فأمسك بالشوكة والملعقة، اللتين يحتفظ بهما ملفوفتين دائماً، في جيبه، منذ ان تعود ان يتناول طعامه من السفرطاس في الخارج، بدلاً من الرجوع إلى البيت. كانت الغرسة الاولى، لشوكته في الطعام، تساعده على فتح شهيته، وتقدم له الجاذبية والمتعة اللازمتين

(١) pietanziera

(٢) Polenta عصيدة من دقيق الذرة. (المورد).

Twitter: @ketab_n

لطبق موضوع على الطاولة بالقياس إلى أطعمة وضعت في السفرطاس لساعات خلت. ثم إنك ترى أن الطعام قليل فتفكر وتقول لنفسك: من الأفضل أن آكل ببطء. اما من السفرطاس، فان اللقيمات الاولى على الاقل، تكون سريعة، وسرعان ما يلتهمها لمجرد وصولها إلى فمه، مع ان الاحساس الاولي له، يكون مشوباً بالحزن، لأن الطعام الذي يحتوي عليه السفرطاس يكون بارداً، ولكن سعادته، ومتعته بالطعام، سرعان ما تعودان إلى حالتهما الطبيعية، ذلك انك تجد ان هذا الطعام الذي اعد أصلاً في البيت أكثر لذة حين تأكله في مكان بعيد عن البيت.

لقد بدأ ماركوفالدو يمضغ طعامه الآن ببطء، وهو جالس على مقعد في الشارع بجوار مكان عمله البعيد عن منزله،لأن عملية رجوعه إلى البيت لتناول الطعام فيه ستكون مكلفة مادياً، إذا حسبنا تذاكر الترام، وتستنزف جهده ووقته ايضاً. لذلك، كان لابد من هذا السفرطاس، الذي يضع طعامه فيه، ليأكله في الخلاء. وهو يراقب الناس الذين يمرون من جواره، ثم ينهض بعد انتهائه من تناول الطعام، ليشرب من نافورة الماء المنعشة.

اما في ايام الخريف، وحين لا تظهر الشمس الا قليلاً، فقد كان يقوم باختيار الاماكن التي تصلها اشعة الشمس، وكان يستخدم اوراق الشجر المتساقطة فوطاً يمسح بها يديه وفمه بعد الطعام. كان جلد السجق، يذهب للكلاب المتشردة التي سرعان ما عقدت صداقة حميمة معه، اما بقايا الخبز، فقد كانت غذاء للزرازير، التي كانت تتحين فرصة عدم وجود احد في الشارع، لالتقاط فتات الخبز المتبقي.

وبينما كان يأكل كان ماركوفالدو يفكر:

«لماذا اشعر بلذة وانا اتذوق نكهة طبيخ زوجتي هنا، ولا أشعر بذلك في البيت وسط العراك والدموع والديون التي تنمو في كل محادثة؟».

وحين يفتح ماركوفالدو السفرطاس، يتذكر ان طعامه، هو نفس طعام عشاء ليلة الامس، وهذا ما جعله يشعر بعدم الرضى، ذلك انه سيأكل بقايا طعام بارد غير طازج، كما ان له مذاقاً معدنياً، من جراء وضعه في هذا السفرطاس المصنوع من الالومنيوم وهذا ايضاً يجعله يشرد بذهنه إلى زوجته (دوميتيلا) التي استطاعت ان تفسد عليه وجبته حتى وهو بعيد عنها. وحين

Twitter: @ketab_n

وصل إلى هذه النقطة من التفكير، تبين له ان طبقه قد شارف على الانتهاء، فطرد الفكرة، وحاول ان ينظر إلى طبقه هذا كطبق خاص به، طبق نادر، كي يعود لالتهام طعامه بنهم. ولكن وبعد أن يحدق في بقايا الطعام، ذات الطعم المعدني، وبقايا الشحم. في الطبق الفارغ، يتغلب عليه ثانية الحزن والأسى.

وللتعبير عن ذلك الحزن، يقوم بلف كل شيء ويضعه في جيبه، ولان الوقت لم يحن بعد للعودة إلى العمل، يقوم ايضاً بترتيب اغراضه، ثم يضع في جيب معطفه الكبير ملعقته وشوكته، وسفرطاسه. ثم يتجه إلى محل لبيع النبيذ، ليشتري كأساً يملؤه لحافته بالنبيذ، او يجلس في المقهى، كي يرتشف فنجاناً صغيراً من القهوة، ثم يتفرج على الحلويات من خلال واجهات العرض، ثم يدلف إلى علب (النوجة) والشوكولاته، ويحاول اقناع نفسه بانه لا يرغب بأي منها، فهو لا يريد اي شيء، وانما يريد ان يسلي نفسه فقط، ويقتل الوقت فقط، ثم يقفل عائداً إلى الشارع، ليجد ان الترام قد امتلأ بالناس مرة اخرى، وان ساعة العودة إلى العمل قد ازفت، فيتجه عائداً إلى عمله.

ولظروف عائلية، قامت زوجته بشراء كمية كبيرة من (السجق) والملفوف، ولثلاثة امسيات متوالية، كان على ماركوفالدو ان يجد على مائدة العشاء، طبقاً من السجق، وطبقاً من الملفوف، لذلك اصبح يعتقد اعتقاداً جازماً ان السجق قد صنع فعلاً من لحم الكلاب، لأن رائحته وحده، كافية للقضاء على شهيته، اما الملفوف، فقد كان يعتقد انه نوع من الخضار الرديئة التي لا يستطيع الاقتراب منها، ولسوء الحظ فقد كان يجد ان سفرطاسه الذي يحمل فيه طعام الغداء، مليء ايضاً بالسجق والملفوف، اللذين يحيط بهما الدهن من كل مكان.

ولأن صاحبنا كان من النوع الذي ينسى، فقد كان يقبل على فتح سفرطاسه بحماسة، مدفوعاً بحب الاستطلاع والترقب، ناسياً ما كان قد تناوله ليلة الامس، ولكنه سرعان ما كان يصاب بخيبة الامل.

في اليوم الرابع، وبعد ان غرس شوكته في السجق، واستنشق الرائحة، نهض من مكانه، وانطلق يسير في الشارع شارد الذهن. اما المارة فقد كانوا ينظرون بدهشة إلى هذا الرجل، الذي يحمل شوكة بيد وطبقاً من السجق باليد الاخرى، دون ان يكون قادراً على وضع لقمة واحدة في فمه.

Twitter: @ketab_n

ومن احد الشبابيك، سمع ماركوفالدو صوتاً يناديه:

ـ هيه ـ هيه، ايها السيد!».

رفع ماركوفالدو نظره إلى الطابق المتوسط، للفيلا الكبيرة، فوجد صبياً يقف على النافذة، معتمداً بيده على شرفتها، وامامه احد الاطباق:

ـ ايها السيد ماذا تأكل؟

ـ سجق وملفوف!!

ـ كم انت محظوظ ايها السيد؟

همهم ماركوفالدو بكلمات غير مفهومة، فجاءه صوت الولد ثانية:

ـ تخيل ايها السيد، انه مفروض علي ان آكل النخاع المقلي هذا اليوم؟

نظر ماركوفالدو إلى الطبق الموضوع على شرفة النافذة، فوجد ان النخاع المقلي طري، وملفوف، كأنه مسحوب دفعة واحدة من الرأس، مما جعل فتحتي انفه تهتزان، فقال للصبي:

ـ ماذا ألا تحب اكل النخاع؟

ـ لقد حبست هنا، كعقاب لي، لانني رفضت ان آكل النخاع، لذلك فانني سأقوم بالقائه من النافذة.

ـ وهل تحب اكل السجق؟

ـ آه نعم، انها تشبه الثعابين..، لذلك لا يسمح لنا بأكلها في هذا البيت ابداً...

ـ إذن اعطني طبقك، وخذ طبقي.

امتلأ وجه الصبي بالرضى والحبور، فصرخ:

ـ مرحى، مرحى!!

ثم قدم لماركوفالدو صحنه المصنوع من البورسلين، مع شوكة فضية ثقيلة، فقدم له ماركوفالدو السفرطاس، وشوكته المصنوعة من الحديد وانهمك الاثنان في الاكل، الصبي على شرفة النافذة وماركوفالدو على المقعد المقابل، ولعق الاثنان شفتيهما، معلنين ان اياً منهما لم يتذوق طعاماً، اشهى أو ألذ من هذا الطعام. وفي هذه الاثناء، ظهرت المربية من خلف الصبي واضعة يديها على ردفيها، وصاحت:

ـ يالهي، ماذا تأكل ايها الصغير؟

Twitter: @ketab_n

اجاب الصبي :

ـ السجق ! !

ـ ومن الذي اعطاك اياه؟

اشار الصغير إلى ماركوفالدو وقال :

ـ هذا السيد .

كان ماركوفالدو قد اخذ قطعة من النخاع ، والتهمها ونظر إلى السيدة التي كانت تصيح :

ـ ألقه بعيداً ، ألقه بعيداً ، ان رائحته نتنة ، ألقه بعيداً !

ـ ولكنه شهي؟

ـ اين صحنك وشوكتك؟

اشار الصبي مرة اخرى إلى ماركوفالدو وقال :

ـ اخذهما هذا السيد ! !

كان ماركوفالدو في تلك اللحظة ايضاً قد اخذ قطعة من النخاع بشوكته ورفعها في الهواء قبل أن يضعها في فمه ، فصرخت المرأة :

ـ لص ، لص ، الفضة ، الفضة ، لقد سرق ملعقة الفضة !

نظر ماركوفالدو إلى طبق النخاع الذي أكل نصفه ، بأسى ، ثم اتجه نحو النافذة ووضع الطبق والشوكة على شرفتها ، ناظراً إلى المربية باحتقار ، وانسحب بهدوء ، ولم يكد يدير ظهره حتى سمع صوت سفرطاسه يتدحرج على الرصيف وصوت بكاء الطفل ، واغلاق مصراعي النافذة بقوة .

استدار ماركوفالدو نحو سفرطاسه ، وانحنى ، والتقط الوعاء والغطاء حيث وجدهما قد انثنيا من جراء اصطدامهما بالارض ، ولم يعد إغلاقهما محكماً ، فوضعهما في جيبه وقفل عائداً إلى عمله .

Twitter: @ketab_n

الشتاء

٨ . غابة على الاوتوستراد

للبرد الف شكل، والف طريقة، يتحرك بها في هذا العالم، فهو في البحر يعـدو كفـرقة من الخيول، وفي الريف يسقط كأسراب الجراد، اما في المدن فيشرع كالسكاكين التي تأخذ بتقطيع الشوارع، شاقة طريقها عبر صُدوع البيوت غير المدفأة. في ذلك المساء، وبعد أن احرقت عائلة ماركوفالدو، آخر مخزونها من الفحم، جلست العـائلة ملتفـة بالملابس الثقيلة، ناظرة بترقب إلى آخر الجمرات وهي تخمد في الموقد.

كانوا قد توقفوا عن الكلام، واستعاضوا عن ذلك بنفث سحب البخار من افواههم؛ كانت زوجة ماركوفالدو تطلق سحباً كبيرة وطويلة اثناء تنهداتها، وكـان الاطفـال ينفثون سحباً صغيرة كفقاعات الصابون، اما السحب التي يطلقها ماركوفالدو في سماء الغرفة، فقد كانت كتجليات عبقري، سرعان ما تختفي.

اخـيراً، استقر فكر ماركوفالدو على أمر: «لماذا لا اذهب للبحث عن حطب،من يدري؟ قد اجد شيئاً منه؟».

لذلـك قام بحشو اربع او خمس صحف، بين قميصه ومعطفه، كي تحميه من هبوب الريح، وخبأ منشاراً طويلاً تحت معطفه الطويل، وخرج في ظلام الليل تتبعه نظرات افراد عائلته، التي يغلب عليها الأمل والتفاؤل، ولكن

Twitter: @ketab_n

كما يقال، من السهل ان تتحدث عن الحطب في المدينة، ولكن من الصعب ان تجده.

لذلك خرج تصحبه اصوات احتكاك ورق الصحف بملابسه، مع كل خطوة يخطوها، وظهور واختفاء المنشار الطويل من اسفل معطفه، ومن اعلى ياقته، واتجه على الفور إلى بقعة صغيرة من الحديقة العامة التي تقع على تقاطع شارعين.

كانت الحديقة خالية تماماً، فاخذ ماركوفالدو يتفحص الشجيرات العارية، كل شجرة على حدة، مفكراً بعائلته التي تنتظره باسنان مصطكة.

كان ميشلينو الصغير يقرأ في كتاب يضم قصصا عن الجنيات استعاره من مكتبة المدرسة الصغيرة، واسنانه تصطك من البرد، وكانت قصة الكتاب تتحدث عن طفل صغير لاحد الحطابين وقد اخذ والده الفأس كي يقطع الحطب من الغابة. ففكر لحظة وقال: ـ «الغابة، اجل الغابة، الحطب لا يوجد الا في الغابة، لذلك فهي المكان المناسب للذهاب اليه».

كان (مشلينو) قد ولد في المدينة، ولم ير غابة في حياته، حتى ولو عن بعد. ومع ذلك، فقد اتفق مع اخوته على الذهاب إلى الغابة، فحمل الاول الفأس، والثاني الخطاف، والثالث الحبل، وودعوا أمهم وخرجوا للبحث عن الغابة.

قاموا في البداية بجولة حول المدينة المضاءة باعمدة الكهرباء، فلم يجدوا إلا المنازل، ولم يروا اي اثر للغابة. ومع انهم كانوا يصادفون بعض المارة في الشوارع، الا انهم لم يجرؤوا ابداً على سؤالهم عن موقع الغابة، إلى ان وصلوا إلى منطقة، لا يوجد فيها اي منزل، تمتد عبرها شوارع الاوتوستراد العريضة، وهناك على جانبي الاوتوستراد عثر الاطفال اخيراً على الغابة: كانت الاشجار الغريبة تنمو بشكل كثيف، مغطية الارض، وكانت جذوع هذه الاشجار، نحيفة، مستقيمة او مائلة، اما قممها فقد كانت عريضة مسطحة، وحين كان ضوء السيارات يسقط على تلك الاشجار، كانت تظهر بينها اشكال غريبة، والوان اغرب: انابيب معاجين الاسنان، قناع، اجبان، شفرة حلاقة، زجاجة، بقرة، إطار سيارة، وكلها مكتوب عليها حروف ابجدية.

صاح مشلينو: «مرحى، إنها الغابة!».

Twitter: @ketab_n

ووقف الاخوة يرقبون ظهور القمر، من بين هذه الاشباح الغريبة بذهول، وهتفوا: «الله كم هو جميل...»

اما (مشيلنو)، فقد ذكرهم بالغرض الذي جاءوا من اجله، الحطب.

ثم انطلق إلى شجيرة صغيرة، على شكل وردة يانعة صفراء، فقطعها، ثم قطعها إلى اجزاء، وعاد بها مع اخوته إلى المنزل.

حين عاد ماركوفالدو إلى البيت، حاملاً معه الاغصان النحيفة الرطبة، وجد المدفأة مشتعلة. فصرخ وهو يشير إلى لوحة الاعلانات المكومة مع الكرتون السريع الاحتراق:

ـ اين وجدتم هذا؟

قال الأطفال:

ـ في الغابة!

ـ أية غابة؟

ـ الغابة الموجودة على طريق الاوتوستراد، انها مليئة بالحطب!!

ولأن الفكرة في غاية البساطة، ولانهم بحاجة دائمة إلى المزيد من الحطب، فقد فكر ماركوفالدو، انه من الاجدى له، اتباع الوسيلة التي اتبعها اولاده، فخرج مرة اخرى، حاملاً منشاره متجهاً إلى الاوتوستراد.

كان الشرطي المناوب في منطقة الاوتوستراد تلك الليلة، يدعى (استولفو) وكان هذا الشرطي قصير النظر، يقود دراجته النارية وهو يضع نظارته الطبية، ويقوم بواجبه على خير وجه، خوفاً من تأخر ترقيته، وكانت قد وصلت في ذلك المساء اخبارية تفيد بان ثمة جماعة من الصبية، قد قاموا بتحطيم لوحات الاعلان قرب الاوتوستراد، فانطلق (استولفو) إلى المنطقة كي يتحقق من الأمر.

على جانبي الاوتوستراد، كانت اللوحات الاعلانية ذات الاشكال الغريبة تؤثر على (استولفو)، وتنصحه وتحذره، وكان يحملق في تلك الاشكال التي رافقته طوال جولته، فاتحاً عينيه القصيرتي النظر على اتساعهما لتفحص المنطقة. وقد استطاع (استولفو) من خلال شعاع الضوء المنطلق من دراجته النارية، ان يمسك بشقي متلبس بالجريمة، يقف على قمة احدى لوحات الاعلان، فكبح عنان دراجته، وصرخ:

Twitter: @ketab_n

ـ هي، ماذا تفعل هناك، هيا انزل على الفور والا . . !

لكن الصبي لم يتحرك، بل اخرج لسانه، واخذ يلعق شفتيه.

وتبين (لاستولفو) ان الصبي لم يكن سوى اعلان لبعض انواع الجبنة المصنعة، يصور صبياً صغيراً، يلعق شفتيه، فعاد استولفو بخفي حنين، وانطلق بدراجته.

وعلى بعد قليل من ظلال لوحة الاعلان الضخمة، ظهر امامه وجه حزين خائف، فصرخ به: «اياك ان تتحرك! اياك ان تحاول الهرب!»

ولم يهرب ذلك الانسان، لان لم يكن سوى وجه لانسان مرسوم وسط قدم مغطاة بالمسامير اللحمية، مع اعلان عن مزيل فعال لهذه المسامير اللحمية، فقال استولفو «آه، عفواً»، وانطلق بدراجته.

اما لوحة عقاقير الصداع، فقد حملت هي الاخرى، رأساً ضخما لرجل يضع يديه فوق عينيه من الالم، فتجاوزه (استولفو) بضوء دراجته النارية، نحو ماركوفالدو الذي تسلق قمة لوحة الاعلان، مع منشاره محاولاً ان يقطع جزءاً منه، وحين بهره الضوء حاول الاختفاء، وبقي ساكناً، متشبثاً بأذن الرأس الكبير، الذي شق منشاره الطويل نصف جبينه.

تفحص (استولفو) الاعلان جيداً، وقال:

ـ «آه، نعم، عقاقير (ستابا). انه اعلان مؤثر جداً وفكرة ذكية، ان يقوم ذلك الرجل الصغير، بشق الرأس إلى نصفين، للدلالة على الصداع النصفي، فكرة رائعة». وانطلق وهو راض تماماً عن مهمته.

كان المكان ساكناً وبارداً، فتنهد ماركوفالدو، وتنفس الصعداء، واستقر في مكانه غير المريح، مستمراً في عمله، ناشراً بمنشاره تلك اللوحة بخفة وحذر، تحت اشعة القمر الذي اضاء بنوره تلك الليلة الباردة.

Twitter: @ketab_n

الربيع

٩ . الهواء العليل

قال طبيب الصحة العام: «هؤلاء الاولاد بحاجة إلى استنشاق هواء الجبال المنعش العليل، والركض بين السهول والمراعي الخضراء. . .».

قال ذلك، وهو واقف بين اسرتهم، يفحصهم ويعاينهم، في المكان الضيق الذي يعيشون فيه، ثم تقدم من (تريزا) الصغيرة، وهو يضغط بسماعته الطبية على ظهرها بين الترقوتين الرقيقتين، كجناحي عصفور صغير، خاليين من الريش. كان الاطفال الاربعة، يرقدون على سريرين، مكشوفي الرؤوس، أرجلهم ظاهرة من تحت الغطاء، وخدودهم محمرة، واعينهم لامعة، وقد استفزتهم جملة الطبيب، فاطلقوا تساؤلاتهم في وجهه:

سأل ميشلينو: هل تقصد بالسهل الاخضر، حوض الزهور الموجود في ساحة المدينة؟»

وسأل فيلبينو: «هل تقصد بالمرتفعات، ناطحات السحاب؟»

وسأل بيتروشيو: «وهل الهواء العليل المنعش صالح للأكل؟».

كان ماركوفالدو الطويل النحيف، وزوجته «دوميتيلا» البدينة القصيرة، يعتمدان بساعديهما على خزانتهما المتهالكة، بيد، تاركين اليد الاخرى، تسقط على جانبيهما بلا حراك، هامسين لبعضهما البعض: «اين يمكن ان نجد تلك الاشياء، وكيف نقدر على ذلك، ونحن بحاجة إلى إطعام هذه الافواه الستة،

Twitter: @ketab_n

وسداد الديون الكثيرة المتراكمة علينا. كيف نستطيع ان نتدبر الأمر؟».

وبعد لحظات صاح ماركوفالدو: «وجدتها، ان أجمل مكان يمكن أن نرسل الاولاد اليه هو الشارع.»

واستنتجت (دوميتيلا): «حين نطرد من البيت، سوف نذهب إلى هناك، نستنشق الهواء العليل، وننام تحت النجوم المتلألئة».

وفي عصر احد ايام السبت، عندما تعافى الاطفال قليلاً، اراد ماركوفالدو ان يأخذ اطفاله في رحلة إلى التلال القريبة، ولما كانت المنطقة التي يعيشون فيها من أبعد المناطق عن تلك التلال، فقد كان يتعين عليهم ركوب القطار كي يصلوا اليها، ويتسلقوا قممها، ولكن الاطفال لم يروا سوى ارجل المسافرين من حولهم. وشيئاً فشيئاً، بدأ الزحام يخف، واستطاع الاطفال ان ينظروا إلى الشارع من خلال النوافذ التي لم يعد يحجبها احد، وحين وصلوا إلى المحطة الاخيرة انطلقوانحو المنطقة.

كان الربيع مايزال في بدايته؛ والاشجار مازالت في بداية إزهارها، في الشمس الفاترة. نظر الاطفال حولهم، وماركوفالدو يقودهم نحو درج صغير يرتفع بين الخضرة.

سأل (مشلينو): «كيف وجد هذا الدرج، دون ان يوجد بيت فوقه؟».

قال ماركوفالدو: «انه ليس درج بيت، ان اشبه بالشارع.»

فسأل (مشلينو) ثانية: «شارع، وكيف تتدبر السيارات أمرها فيه؟»

وحين وصلوا إلى اسوار بعض الحدائق. التي تحف بها الاشجار من كل جانب قال (مشلينو): «اسوار بدون سقوف، هل تم نسف سقوفها؟».

فقال ماركوفالدو: «لا، انها حدائق مثل الساحات. ان البيت هناك خلف الاشجار».

هز رأسه، معبراً عن عدم اقتناعه: «لكن الساحات داخل البيوت لا خارجها.».

فسألت (تيريسينا): «وهل تعيش الاشجار في هذه البيوت؟».

وبينما كان ماركوفالدو يتسلق تلك التلال، كان يشعر انه قد بدأ يتخلص رويداً رويداً من رائحة المخزن العفن الذي ينقل اليه البضائع، يومياً، ولمدة ثماني ساعات، ومن رطوبة جدران منزله، والغبار المتراكم فيه، الذي يراه

Twitter: @ketab_n

سابحاً بين خيوط الضوء المتساقط من النافذة الصغيرة، ومن نوبات السعال، التي تهاجمه في الظلام. شعر ايضاً ان اطفاله اقل هزالاً وشحوباً، وبدا عليهم انهم قد اصبحوا جزءاً من هذه الخضرة اليانعة والضوء المشرق فقال مداعباً اطفاله: «انتم تحبون هذا المكان، اليس كذلك؟».

ـ «نعم.»

ـ «لماذا؟»

ـ «لانه لا يوجد بوليس، ويمكننا ان نقطف الازهار ونرمي الحجارة كيفما نشاء.».

ـ وماذا عن انفسكم، هل تتنفسون جيداً؟

ـ «لا.»

ـ الهواء عليل هنا؟

وحاول الاولاد ان يمضغوا الهواء، واجابوا:

ـ عن ماذا تتحدث، هذا الهواء لا طعم له اطلاقاً.

تسلق الاولاد التل، حتى شارفوا على الوصول إلى قمته، وحينما استداروا، ظهرت المدينة اسفل التل، منبسطة عن بعد، وموزعة على شبكة من الشوارع العنكبوتية الباهتة. تدحرج الاطفال على العشب، كأنهم لم يفعلوا هذا الأمر من قبل طوال حياتهم. كان الهواء العليل، يهب بنسماته المسائية الندية وبعد فترة اخذت بعض منازل المدينة ترسل ضوءها المضطرب، فبدأت تداعب مشاعر ماركوفالدو الأولى ذاكرته، حين جذبته هذه المدينة وهو مايزال صغير السن، وتعلق بهذه الاضواء والشوارع، منذ اللحظة الاولى لوصوله اليها، حيث كان يأمل ان يحقق الكثير من الاشياء التي لم يكن يعرف عنها شيئاً. ولكن هذه الآمال، ضاعت كما تضيع نسمة الهواء في المدينة.

سيطر عليه شعور بالحزن والاسى، لانه سيعود إلى هناك ثانية، وتخيل المكان الذي يقف فيه، وتلك المدينة التي بدت له ارضاً قفراء مأهولة، راكدة مغطاة بطبقة كثيفة من السقوف يخفق فيها الدخان الخارج من مداخنها المنتصبة كالعصي.

اخذ الجو يميل للبرودة، وكان يتوجب عليه ان يجمع اطفاله للعودة إلى البيت، ولكن قلبه لم يطاوعه، فقد كان الاولاد يتأرجحون بفرح، على اغصان

Twitter: @ketab_n

الأشجار، وتقدم منه مشلينو، وقال له: «أبي، لماذا لا نأتي لنعيش هنا؟»

فاجابه ماركوفالدو:

«أيها الغبي، لا يوجد بيوت هنا، لا احد يعيش هنا».

لقد خرجت منه تلك الكلمات دون ان يدري، فقد كان مستغرقاً في احلامه، وكان يتمنى لو يستطيع العيش في تلك المنطقة، ولكن (مشلينو) لم يسكت فقال: «كيف، كيف تقول هذا، وماذا يفعل اولئك السادة؟ انظر!»

وتحول الفضاء امامهما إلى لون رمادي، حيث شاهدا مجموعات من الناس، من اعمار مختلفة، يتقدمون خلال السهل، ويرتدون الملابس الرمادية والقبعات، ويحملون العصي في ايديهم، ينقسمون إلى مجموعات، ويتحدثون بصوت مرتفع، او يضحكون، او يضربون الارض بعصيهم او يرفعونها بقبضاتهم إلى الاعلى. فسأل مشلينو اباه: «من هؤلاء، وإلى اين يتجهون؟»

ولكن ماركوفالدو ظل صامتاً.

ومرّ احدهم بالقرب من ماركوفالدو فالقى عليه تحية المساء، وسأله: «هل تحمل لنا اخباراً من المدينة؟».

فرد ماركوفالدو التحية، وسأل:

ـ ماذا تعني بالاخبار؟

فقال الرجل قبل ان يتوقف عن الكلام:

ـ لا شيء، انني ارغب بالحديث فقط، لذلك اوجه هذا السؤال لأي شخص يأتي من المدينة، فانا اعيش على قمة هذه التلة منذ ثلاثة شهور.

ـ الا تنزل إلى المدينة ابداً؟

ـ عندما يسمح لي الاطباء.

وسكت برهة ثم دق باصابعه على صدره، وقال بانفاس متقطعة:

ـ لقد اخرجوني من المدينة، ولم يسمحوا لي بالعودة، وحين شفيت وعدت اليها، للعمل في المصنع، اعادوني إلى هنا مرة اخرى.

وبينما كان ماركوفالدو يطوف بعينيه باحثاً عن فيلبيتو، وتريزا، وبيترشيو الذين فقد اثرهم كلياً، سأل الرجلُ وهو يشير للرجال الآخرين:

ـ وهؤلاء ماذا يفعلون؟

قال الرجل ساخراً:

Twitter: @ketab_n

ـ لقد اذنوا لنا اخيراً، لجميع الرفاق بالخروج. إننا نذهب للنوم باكراً، ولا نستطيع تخطي هذه المنطقة.

ـ أية منطقة؟

ـ هذه المنطقة، الا تعرف انها جزء من المصح؟

ـ هنا امسك ماركوفالدو يد مشلينو الذي كان يقف منصتاً للكلام خائفاً قليلاً، ونظر من قمة التلة إلى الحي الذي يسكن فيه، لم يستطع تمييزه. فقد امتدت اليه الظلال، واصبح على وشك الغرق في الظلمة، فعرف ان وقت العودة قد ازف. فنادى: «تيريزا، فيلبيتو»، وقال للرجل:

ـ معذرة لقد حان وقت الرحيل، ويجب ان ابحث عن اطفالي الآخرين.

فاستند الرجل إلى جدار في الجوار، واشار إلى منطقة اسفل التل وقال:

ـ انهم هناك يلتقطون الكرز!!

ونظر ماركوفالدو إلى الجهة التي اشار اليها، فرأى شجرة الكرز، ورأى الرجال بملابسهم الرمادية يتحلقون حولها، ويجذبون اغصانها بعصيهم المعقوفة، لالتقاط الفاكهة، ورأى (تريزا) والولدين الآخرين يتلقفون الكرز من ايديهم بسعادة، ويطلقون الضحكات المدوية.

قال ماركوفالدو: «وداعاً اذن، لقد تأخر الوقت، وبرد الطقس».

فقال الرجل:

ـ كم اتمنى ان اسير بعصاي هذه في شوارع المدينة، واختار شارعاً منها، وصفاً من الاضواء اتتبعه واحداً واحداً، واتوقف عند النوافذ واقابل الناس مرحّباً بهم. عندما تسير في المدينة، فكر بهذه العصا وتخيلها تتبعك.»

وبعد قليل حضر الاولاد، متوجين باكاليل من اوراق الشجر، صفّها لهم نزلاء المصح، فقالت تريزا: «انه مكان رائع ياأبي، سوف نأتي للعب هنا مرة اخرى، اليس كذلك؟»

وقال مشلينو: «لا بل نأتي لنعيش هنا مع هؤلاء السادة».

فقال ماركوفالدو: «لقد تأخر الوقت، هيا ودعوا هؤلاء السادة، واشكروهم على الكرز ودعونا نعود إلى البيت.»

وبالفعل توجه ماركوفالدو مع اولاده إلى البيت. لم يجب ماركوفالدو على سؤال من اسئلتهم،كانوا متعبين مما اجبر ماركوفالدو ان يحمل فيلبيتو وبتروشيو

Twitter: @ketab_n

على ظهره، وان يجر (تريزا) من يدها، اما مشلينو الاكبر، فقد تقدم الركب، ضارباً الحجارة بقدميه.

Twitter: @ketab_n

١٠ . رحلة مع البقر

كان ضجيج المدينة، في ليالي الصيف، يدخل النوافذ المفتوحة، لغرف اولئك الذين لا يستطيعون النوم من جراء الحرارة الشديدة، اما الضجيج المزعج، فهو ذلك الذي يخترق تلك النوافذ في ساعات الليل، حيث يكون السكون شاملاً، حين تتوقف جلبة السيارات ويسود السكون، اذ ذاك تبدأ هذه الاصوات الفريدة والواضحة، والتي تكون اكثر اقلاقاً، مثل خطى انسان نائم يعبر الطريق، او جلبة دراجة الحارس الليلي، او صوت شجار غير مميز عن بعد، او شخير آت من الطوابق العليا، او أنات رجل مريض، او دقات ساعات قديمة، حتى يبزغ الفجر، وتسمع اوركسترا اجراس الساعات الموقوتة في بيوت العمال، وينطلق الترام من محطته.

لذا، وفي ليلة من ليالي الصيف، بينما كان ماركوفالدو ينام بين زوجته واولاده، الغارقين في العرق اثناء نومهم، استلقى مغلق العينين، واخذ يستمع لتلك الاصوات الضعيفة التي تصل من الرصيف، او من النافذة الدنيا لمنزله الشبيه بالقبو. سمع صوت كعب حذاء امرأة تسير بسرعة في هذا الوقت المتأخر من الليل، بعد ذلك سمع وقع اقدام رجل، يتوقف فجأة لالتقاط بعض اعقاب السجائر، ثم اصاخ السمع لصفير شخص ما، يحاول من خلاله ان يطرد الوحدة التي يشعر بها، وبين الفينة والاخرى، كانت تصله بعض

Twitter: @ketab_n

الكلمات المتقطعة بين عدد من الاصدقاء، الذين كان يبدو انهم يتحدثون عن الرياضة والمال. الا ان هذه الاصوات، في هذا الليل الحار، تفقد قدرتها على بث الراحة والطمأنينة في النفس، كأنها تذوب هي ايضاً من شدة الحر، ومع ذلك، تظل قادرة على فرض وجودها وسيطرتها على هذه المملكة غير المسكونة.

في كل حضور انساني، يفكر ماركوفالدو بحزن بأخيه الانسان، الذي يغرق حتى في ايام العطل في جحيم غبار الاسمنت، او اخيه الغارق في الديون، او اعباء العائلة، وانخفاض الاجور. وقد فتح التفكير في الاجازة البعيدة المنال، ابواب الحلم امام ماركوفالدو فجأة، واحس انه قد سمع صليل أجراس بعيدة، ونباح كلب، وخوار بقرة ضعيفاً.

كانت عيناه مفتوحتين، لم يكن يحلم: عندما أصاخ السمع، محاولاً ان يستعيد السيطرة على تلك الانطباعات غير الواضحة او ان ينكرها، سمع صوت مئات ومئات من الخطوات، بطيئةً، ومتباعدةً، وغائرةً، ولكنها أصبحت فيما بعد أكثر قرباً ثم طغت على الأصوات الأخرى كلها ما عدا صرير سكة الترام الصدئة.

نهض ماركوفالدو في الحال، وارتدى قميصه وبنطاله، فسألته زوجته وهي تنام بعين واحدة مفتوحة:

- إلى اين انت ذاهب؟.

- هناك قطيع من البقر يعبر الشارع، وانا ذاهب لرؤيته.

وصاح الاطفال، الذين يعرفون كيف يستيقظون في اللحظة المناسبة:

- ونحن ايضاً نريد ان نذهب!

كان ذلك القطيع، واحداً من القطعان التي تعودت ان تمر عبر المدينة، في اوائل الصيف متجهة نحو مراعيها في جبال الالب. خرج الاطفال خلف ابيهم، شبه نائمين، فرأوا نهراً بني اللون، مرقطاً باللونين الابيض والاسود، يغزو الرصيف، ويضرب الجدران المغطاة بالاعلانات والنوافذ السفلى للبيوت، واعمدة اشارات المرور، ومضخات البترول، كان القطيع يتقدم عبر التقاطعات بأنفة وكبرياء، لدرجة انه لا يعطي اي اهتمام لكل ما يقابله، وقد احضر هذا القطيع من البقر، رائحة الروث، والازهار البرية، والحليب، وصوت الا جراس الشجية، وظهر وكأن المدينة لم تؤثر عليه ابداً، فهو يعيش في

Twitter: @ketab_n

عالمه الخاص، المكون من الحقول الرطبة والجبال الضبابية وجداول الانهار الصغيرة. أما رعاة البقر، فقد كانوا يقومون بحركات التفاف صغيرة حول القطيع، رافعين عصيهم، ومندفعين خلف بعض الابقار، يصرخون بكلمات متقطعة غير مفهومة. اما الكلاب، التي لا تعترف بغرابة الاشياء الانسانية، فقد أظهرت هي الاخرى عدم اهتمامها، ومرت من امامهم بانوفها الشامخة، واجراسها الصغيرة ذات الرنين الجميل، ملتزمة بتأدية عملها على خير وجه، وان كانت هي الاخرى تشعر بالقلق وعدم الراحة، سامحة لنفسها ان تنجذب لهذا الجو في بعض الاحيان، فتشم رائحة الزوايا، واعمدة النور، وبقع الارصفة، كما هي العادة عند كلاب المدينة.

قال الاطفال:

ـ ابي هل البقر مثل الترام، هل لها مواقف، واين هي بداية خط البقر؟

قال ماركوفالدو، محاولاً توضيح الأمر لاولاده:

ـ ليس لها علاقة بعربات الترام، وهي ذاهبة إلى مراعيها في الجبال.

فسأل (بيتروشيو): وهل تلبس الابقار زلاجات؟

فقال ماركوفالدو:

ـ قلت لكم انها ذاهبة للجبال لأكل العشب الاخضر وليس للتزلج

فسأل (بترشيو) ثانية:

ـ الا ترتكب هذه الابقار مخالفات حين تفسد الممرات العشبية؟

كان (مشلينو) هو الوحيد الذي لم يسأل أي سؤال حول البقر، فقد كان أكبر اولاد ماركوفالدو، وكانت لديه بعض الافكار الخاصة عن البقر، فصمم على التأكد منها بنفسه، فاخذ يتفحص القرون الصغيرة، والجلود الملونة، والرعاة، وهكذا لحق بالقطيع كما يلحق الكلب المكلف بحراسة القطيع بقطيعه.

وبعد مرور آخر مجموعة من القطيع، اخذ ماركوفالدو بيد اطفاله، وعاد إلى البيت، ليكمل نومه، ولكنه حين لم ير (مشلينو) في البيت، سأل زوجته:

ـ ألم يعد مشلينو إلى البيت؟

فأجابت: ألم يكن معكم؟

ـ كلا

Twitter: @ketab_n

فكر ماركوفالدو، لقد لحق القطيع، والله وحده يعلم أين سيصل. وبدأ بملاحقة القطيع ركضاً عبر الشوارع، ولكن حين تجاوز القطيع الساحة العامة، انقسم القطيع إلى عدة قطعان، عبر شوارع المدينة المختلطة، متجهة إلى الاودية، كل قطيع على حدة. وهنا تأكد ماركوفالدو ان الخيط بدأ يفلت من يده، ولكنه تتبع احد القطعان فتبين له ان ما يبحث عنه غير موجود مع هذا القطيع، وحين وصل القطيع تقاطع الطرق، رأى قطيعاً آخر، فلحق به، وسأل رعاته إن كانوا قد رأوا (مشلينو)، ولكنهم اجابوه بالنفي. وقالوا له ان عليه ان يتبع القطيع الثالث عله يجده معه، وهكذا كان على ماركوفالدو ان يقوم بتمشيط المدينة حتى الفجر، وحتى اختفاء صوت آخر جرس من اجراس القطيع، دون فائدة.

قال له الكابتن، حين ذهب، ليبلغ عن اختفاء ولده:

ـ تقول لحق بقطيع من البقر؟ انه ولد محظوظ، لقد ذهب للجبال لقضاء عطلة الصيف، لا تقلق، سيعود سميناً ملوحاً باشعة الشمس.

وبعد عدة ايام، عاد أحد الكتبة الذين يعملون مع ماركوفالدو، بعد قضاء ايام عطلته الاولى، ليؤكد كلام الكابتن، فقد اكد لماركوفالدو انه قد قابل ولده في الجبل، مع القطيع، وقد ارسل تحياته وسلاماته لوالده، وطلب منه ان يبلغه بانه بصحة جيدة.

اخذ ماركوفالدو يفكر بابنه المحظوظ في الجبال، وبحاله الذي يرثى له في هذه المدينة الغبراء، وحاول ان يتصور كيف يقضي ولده اغلب وقته، وحزمة من العشب في فمه، ويتابع الابقار بنظراته وهي ترعى في الحقول، او ينصت إلى خرير الماء في ظلال الوادي.

اما امه فقد كانت على العكس من ذلك، فقد كانت غير قادرة على فراقه، وتنتظر عودته بفارغ الصبر، وكانت الافكار تتلاعب بمخيلتها:

ـ هل سيعود بالقطار؟ هل سيعود بالباص؟ لقد مر اسبوع؟ اسبوعان؟ وماذا سيفعل حين يسوء الطقس؟

كانت هذه الافكار تنغص عليها حياتها، مع ان نقصان اي فرد من افراد العائلة هو راحة لها.

اما ماركوفالدو فقد كان مصمماً على القول:

Twitter: @ketab_n

ـ انه ولد محظوظ، يستمتع بحياته في اعالي الجبال.

وحين كان يطلق لناظريه العنان، من خلال غبش الفجر إلى الجبال، النائية في الاعلى، كانت تتراءى له اشجار العنب والكستناء، وهي تتلألأ، ويتخيل ازيز النحل في البرية، ويتصور مشلينو يسترخي هناك سعيداً، بين الحليب والعسل، واشجار العليق. الا انه كان يتوقع عودة الصبي، كل مساء، ولكنه لم يكن يفكر بالأمر، كما تفكر فيه أمه، فهو لن يعود بالقطار، او بالباص، بل سيعود مشياً على قدميه، لذلك كان يسترق السمع لخطوات الاقدام العابرة في الشارع ليلاً وكأن نافذة غرفتهم فم صدفة بحرية، يتردد الصدى من خلالها حين تضع اذنك عليها.

وذات ليلة، بينما كان ماركوفالدو جالساً على سريره، يسترق السمع، للاصوات التي تتردد عبر الشارع، سمع وقع حوافر يقترب، يصحبها رنين اجراس، فركض إلى الشارع، مع جميع افراد عائلته صائحاً:

ـ هيا هيا، إنه القطيع، ها هو يعود ثانية ليعبر المدينة.

وفي وسط القطيع مباشرة، كان احد الاشخاص، على ظهر احدى الابقار، ممسكاً برقبتها، رأسه يتأرجح يمنة ويسرة، وما ان مرَّ امام العائلة التي تنتظره حتى صاحوا جميعاً:

ـ انه مشلينو.

وانزلوه عن البقرة، واحتضنوه وقبلوه، وهو مايزال دائخاً ونصف نائم، وانهمرت عليه الاسئلة:

ـ كيف حالك؟

الحمد لله!

ـ هل كانت رحلة جميلة؟

ـ آه... نعم!!

ـ هل كنت مشتاقاً لبيتك؟

وهنا وقف مشلينو قبالتهم عاقد الجبين، بنظرات حادة قاسية وقال:

ـ لقد عملت مثل البغل!!

ثم بصق على الارض، ونظر اليهم بوجهه الذي اكتسى بسمات الرجولة واضاف:

Twitter: @ketab_n

كنت احمل الدلاء للحلابين، واطوف بها من بقرة إلى اخرى، ثم اقوم بعد ذلك بافراغها، كنت اعمل بسرعة وبجد، وفي الصباح، كان يتحتم علي ان اضع الصناديق في الشاحنات التي تحملها إلى المدينة، وكان علي دائمًا ان اقوم بعد البقر، والصناديق، والدلاء، لان اي خطأ في العد، سيؤدي إلى مشكلة عويصة.

ـ والحقول، الم تشاهد الحقول وانت ترعى البقر؟

ـ لم يكن هناك متسع من الوقت، كان هناك الكثير من الاشياء التي يتوجب علي انجازها، الحليب، النوم، الروث، وكل ذلك من اجل ماذا؟ لم احصل على اذن عمل، ولم يدفعوا لي شيئاً يذكر، لكن بالرغم من كل هذا، اذا اعتقدتم انني سأسلم المبلغ لكم فأنتم مخطئون على اي حال، اريد ان انام، اكاد اموت من التعب.

هز كتفيه، ومسح انفه بطرف يده، ودخل إلى البيت، اما القطيع فقد انطلق عبر الشارع، واخذ يبتعد رويداً رويداً، حاملاً معه الاكاذيب، ورائحة التبن، وصوت الاجراس.

Twitter: @ketab_n

الخريف

١١ . الارنب المسموم

اليوم الـذي يتـوجب عليك فيه مغادرة المستشفى، يختلف عن الايام الاخرى، وإذا كنت في صحـة جيدة، فانـك ستحس بهذا الاختـلاف منذ السـاعات الاولى من صباح ذلك اليوم، اذ سيسمح لك بالتجول في أروقة المستشفى، وكـأنـك تتـدرب على الحياة العـادية التي كنت تمارسهـا خارج المستشفى، وتبدأ بالتصرف كرجلٍ معافى، مع هؤلاء الذين لازالوا على فراش المرض لا لإثارة الحسد، بل محاولاً قدر الامكان ان تكون النبرة التي تتحدث بها اليهم نبرة عطف وتشجيع. وتستطيع ايضاً ان ترى اشعة الشمس تتسلل اليك من خلف الشبابيك العريضة، او الضباب في اوقات الضباب، وتسمع اصوات المدينة تختلف عن الايام السابقة، حيث تشعر ان كل صوت يطرق سمعك، وكل ضوء يغازل عينيك من العالم الخارجي، هـو مقدمة للتماس مع هذا العالم بعد قليل. وهذا ما تراه حقيقة من خلف اعمدة السرير.

اما الآن، فها هو العالم الخارجي يعود اليك مرة اخرى، ليكون عالمك الجديد، ليبين لك انك قد أصبحت رجلاً معافى وطبيعياً.

هذا ما احس به ماركـوفـالـدو صبـاح احـد الايام، وهو يشم رائحة المستشفى بعد ان تعافى من مرضه، وجلس ينتظرهم حتى يقوموا بكتابة بعض الاشياء في بطاقة التأمين الصحي، بعد ان اخذ الطبيب اوراقه، وقال له:

Twitter: @ketab_n

ـ انتظر هنا.

ثم انصرف من المكتب وتركه فيه وحيداً.

حينئذ اخذ ماركوفالدو يتفحص الاثاث المدهون باللون الابيض (ذلك اللون لذي يكرهه) وانابيب المختبر المملوءة الكئيبة. وحاول ان يعزي نفسه بالتفكير في اللحظة التي سيغادر فيها المستشفى، والتي بدأت تقترب بالفعل، تاركاً خلفه كل مشاعره المأساوية. ولكن بالرغم من كل ذلك، لم يكن يشعر بالسعادة التي كان يتوقعها. فقد اخذ يفكر بامكانية العودة للمستودع من أجل نقل العلب والصناديق الكرتونية، وبالالاعيب (الحيل) التي كان متأكداً من ان زوجته قد حاكتها مع اولاده، وبهذا الضباب الكثيف الذي يلف العالم الخارجي. كان يشعر ان خطواته في الخارج، ستكون خطوة في فراغ، كان هناك احساس غامض بعدم حاجته لاحد او بحبه لاي شيء. وان كل ما يراه لا يزيده الا قلقاً وعذاباً.

كان امامه في تلك الغرفة ارنب، في قفص، فأخذ يتأمل الارنب، الابيض اللون، ذا الفروة الطويلة المنفوشة، والانف الوردي المثلث الشكل، والعينين الحمراوين الذاهلتين، والاذنين الخاليتين من الفرو تقريباً، والمنبسطتين على ظهره بارتخاء.

لم يكن الارنب كبير الحجم، ولكنه كان يبدو وهو منبطح في القفص الضيق بشكله البيضاوي، وفروه الخارج من خلال اسلاك القفص ضخماً وكبيراً، وكان هناك رعشة بسيطة، تعاوده بين لحظة واخرى.

خارج القفص، وعلى الطاولة، كان هناك بعض العشب، وبقايا جزرة، فكرماركوفالدو بحال الأرنب، فأدرك كم هو تعيس وبائس، فها هو يعيش هناك داخل القفص، ينظر إلى الجزرة، غير قادر على الوصول اليها وقضمها، لذا فقد نهض ماركوفالدو، وفتح باب القفص، فلم يتحرك الارنب، وانما بقي ساكناً في مكانه، غير قادر على فعل شيء، ما عدا بعض الارتعاشات القليلة في وجنتيه، وظهر عليه وكأنه غير مهتم بالأمر، فقد اكتفى بتحريك فكيه، قارضاً بقايا الطعام العالق بفمه.

تناول ماركوفالدو الجزرة، وقربها من الارنب، ثم اخذ يتراجع إلى الخلف، محاولاً اغراءه بالخروج من القفص، وقد نجحت محاولاته بعد جهد،

Twitter: @ketab_n

فلحق به الارنب، واخذ يقرض الجزرة بحذر، وهي ماتزال في يد ماركوفالدو، وكان ماركوفالدو يمسك الجزرة بيد، ويربت على ظهر الأرنب باليد الاخرى، محاولاً الضغط بين لحظة واخرى على جسم الارنب، لمعرفة مقدار الشحم واللحم فيه، ولكنه لم يجد الا العظام البارزة تحت وبره المنفوش.

ومن طريقة قضم الارنب للجزرة، تبين لماركوفالدو انهم لم يكونوا يقومون باطعام الارنب بصورة جيدة، فقال في نفسه:

ـ لو كان هذا الارنب ملكاً لي، لحشوته بالطعام، حتى يصبح كالكرة المنفوخة.

ونظر نحو الارنب بعين المربي العطوف، الذي يعطف على مثل هذه الحيوانات المسكينة، ويمني نفسه بوجبة مشوية شهية، بعد هذه الايام الثقيلة التعيسة التي قضاها في المستشفى. وها هو لحظة خروجه منه، يكتشف صديقاً اكثر تعاسة منه، ولكن لا بأس، فقد كان التفكير في هذا الارنب كافياً لقتل ساعات انتظاره الطويل، وسيتركه بعد قليل، خارجاً إلى ضباب هذه المدينة التي لا ارانب فيها.

حين قاربت الجزرة على الانتهاء، اخذ ماركوفالدو الحيوان الصغير بين يديه، ونظر حوله عسى ان تقع عيناه على شيء ما لاطعامه، فلم ير سوى زهرة الجيرانيوم الموضوعة على طاولة الطبيب، فقرب الارنب منها، ولكن الحيوان اظهر عدم رغبته في هذه الزهرة، بعد ان تشممها جيداً. وفي تلك اللحظة سمع ماركوفالدو وقع خطوات الطبيب عائداً إلى غرفته، فلم يدر كيف يتصرف، وماذا يمكن ان يقول للطبيب حين يرى الارنب بين يديه. ولحسن الحظ كان ماركوفالدو يرتدي (اوفرهول) العمل الثقيل، فادخل الارنب داخل (الاوفرهول) واحكم اغلاقه جيداً من الاسفل إلى الاعلى، ثم دفع الارنب إلى الخلف، حتى لا يرى الطبيب هذا الانتفاخ الغريب في بطنه. جمع ماركوفالدو اوراقه بسرعة، واستدار دافعاً الارنب إلى صدره، وغادر المكتب وهو يخفي الارنب داخل بدلة العمل، ثم انطلق من المستشفى باتجاه مقر عمله.

عند لحظة وصوله إلى مقر العمل، بادره السنيور فيليجلمو قائلاً:

ـ الحمد لله انك شفيت اخيراً، ولكن ما هذا الشيء المنتفخ عند الصدر.

Twitter: @ketab_n

اجاب ماركوفالدو:

ـ انها كمادة ساخنة لمنع الام التقلصات.

وفي تلك اللحظة، تحرك الارنب، فانتفض ماركوفالدو كالمصروع، فقال فيليجلمو:

ـ ماذا بك؟

اجاب ماركوفالدو وهو يدفع الارنب خلف ظهره:

ـ لا شيء، لا شيء، انها (حازوقة) فقط.

فقال رئيس العمال:

ـ ارى انك لازلت على غير مايرام.

وتابع، بينما كان ماركوفالدو مشغولاً برد الارنب الذي يحاول ان يزحف لأعلى كتفه، إلى الاسفل، وهو يهز منكبيه بعنف:

ـ انك ترتجف، اذهب لبيتك، وانا واثق من انك ستكون غداً على احسن حال.

عاد ماركوفالدو للبيت، حاملاً الارنب من اذنيه كصياد محظوظ، وهش له الاطفال مرحبين، وهم يركضون نحوه صائحين:

ـ ابي، ابي، من أين اصطدت هذا؟هل هو لنا؟ هل يمكننا الاحتفاظ به؟

اما زوجته فقد نظرت اليه نظرات ذات معنى وقالت:

ـ اخيراً عدت!!

ومن نظراتها، استطاع ماركوفالدو ان يعرف ان فترة غيابه هذه قد استغلتها زوجته من اجل اصطناع اتهامات جديدة ضده، وتأكد من ذلك حين قالت له:

ـ حيوان حي، ماذا ستفعل به، انه سيزيد من فوضى المكان؟

ولم يلتفت ماركوفالدو لها، بل تقدم من الطاولة ونظفها، ووضع الارنب وسطها، فانبطح الارنب، وحاول الاختفاء، غير سامح لأحد بلمسه.

قال ماركوفالدو:

ـ انه ارنبنا، سوف نسمنه حتى عيد الميلاد المجيد.

فسأل ميشلينو:

ـ هل هو ذكر ام انثى؟

Twitter: @ketab_n

لم يفكر ماركوفالدو بمثل هذا من قبل، وحين سمع السؤال، قفزت الافكار إلى ذاكرته:

ـ اذا كان هذا الارنب انثى، فسوف يتكاثر، ويبدأ بانجاب ارانب اخرى!!

ثم سرح بتفكيره بعيداً واختفت الجدران الرطبة، واخذ يحلم بمزرعة خضراء بين الحقول.

ولكن الارنب، كان ذكراً وليس انثى، ومع هذا بقيت الفكرة تختمر في رأسه:

ـ ليكن ذكراً، انه ذكر جميل، وما علينا الا البحث له عن عروس، حتى يبدأ بتكوين عائلته السعيدة.

فقالت زوجته بحدة:

ـ اذا كنا غير قادرين على اطعام انفسنا، فكيف نستطيع اطعامه؟

فاجاب ماركوفالدو:

ـ دعك من هذا، ساتصرف انا في هذا الأمر.

في اليوم التالي بدأ ماركوفالدو العمل في تأمين الطعام للارنب، فقد كان عليه اثناء العمل ان يخرج اصص الزهور والنباتات الخضراء من مكتب الادارة لسقيها، ثم اعادتها لمكانها من جديد، لذلك فقد قام بقطع بعض الاوراق الخضراء من كل اصيص، ـ كانت الاوراق خضراء من جهة، ومغبرة من جهة اخرى ـ ووضعها داخل بدلة العمل، وبعد ذلك تقدمت منه احدى الفتيات حاملة بيدها باقة من الورد، فسألها قائلاً:

ـ هل اعطاك صديقك هذه الباقة؟

واضاف:

هل ستقدمينها لي؟

وما ان اعطته اياها حتى خبأها هي الاخرى داخل بدلته.

وتقدم منه صبي صغير، يقوم بتقشير اجاصة، فطلب منه ماركوفالدو ان يترك له القشر.

وهكذا، ورقة من هنا، وقشرة من هناك، وزهرة من هنا، وزهرة من هناك، يلتقطها ماركوفالدو من اي مكان، وكيفما اتفق، كان يقوم بجمع طعام

Twitter: @ketab_n

الحيوان، أملاً في ان يستطيع الاستمرار في اطعامه وتغذيته.

وبعد مرور عدة ايام، ارسل السنيور (فيليجيلمو) في طلبه، فاستغرب ماركوفالدو بينه وبين نفسه، وهو المعتاد دائمًا على الشعور بالذنب.

وهناك، في مكتب رئيس العمال شاهد ماركوفالدو طبيب المستشفى، ورجلين من الصليب الاحمر، ورجل بوليس، فبادره الطبيب قائلاً:

ـ اسمع ايها الرجل، لقد اختفى ارنب من مختبري، فاذا كنت تعلم عنه اي شيء اخبرني؟

واضاف:

ـ اياك ان تحاول اللجوء للمناورة، لقد حقنا الارنب بجراثيم مرض خطير، سينتشر في المدينة كلها، ولست بحاجة لسؤالك، ان كنت قد اكلته ام لا، لانك لو فعلت ذلك، لكنت ميتاً الآن.

كان في انتظارهم في الخارج، سيارة اسعاف، ركبوها في الحال، وانطلقت بهم سريعاً، عبر الشوارع والجادات، وصوت صفيرها يزعق من فوق رؤوسهم، في طريقها إلى منزل ماركوفالدو، وعلى طول الطريق كان ماركوفالدو ينظر بحسرة وهو يلقي بالاوراق، والازهار، والقشور من النافذة.

وكانت زوجة ماركوفالدو في ذلك الصباح، حائرة، ماذا يمكن ان تطهو لهم، وكيف تملأ صحونهم الفارغة، والقت نظرة نحو الارنب الذي جلبه زوجها، وهو منبطح في قفصه الذي صنعوه له، فوق نشارة الخشب، فقالت في نفسها:

ـ لقد جاء الوقت المناسب، نحن لا نملك اية نقود، لقد صرفنا كل الراتب على الدواء الاضافي الذي لا يعترف به التأمين الصحي، والبقالات لا يمكن ان تعطينا مزيداً من المشتريات على الحساب، فلماذا نربي هذا الارنب، ولماذا ننتظر حتى عيد الميلاد المجيد، لا، لا يمكن ان نظل هكذا، يجب ان نذبحه. فنادت على ابنتها (ايزولينا) قائلة:

ـ اسمعي يا ايزولينا، لقد كبرت الآن، وعليك ان تتعلمي كيف تطبخين الارانب، عليك اولاً ان تقومي بذبحه، ثم سلخه، وبعد ذلك ساخبرك ماذا يمكن ان تصنعي به.

Twitter: @ketab_n

كانت (ايزولينـا) منهمكـة في قراءة مجلة رومـانسية عاطفية في تلك اللحظة، فقالت لامها:

ـ ستقومين انت بذبحه، وسلخه، واقوم انا بمراقبتك وانت تطبخينه.

قالت والدتها:

ـ يالها من مساعدة، انا لا استطيع ذبحه مع انني اعرف انها مسألة بسيطة، فما عليك الا امساكه من اذنيه وضربه على مؤخرة رأسه بشدة، اما سلخه، فسوف نرى.

ودون ان ترفع (ايزولينا) نظراتها عن المجلة، اجابت امها قائلة:

ـ لن نرى شيئاً لاني لن اضرب الارنب على مؤخرة رأسه، وليست لدي فكرة عن كيفية سلخه.

اما الاولاد الثلاثة، فقد وقفوا يستمعون إلى الحديث بعيون مفتوحة.

فكرت الزوجة بالأمر ملياً، ثم نظرت نحوهم قائلة:

ـ اسمعوا ايها الصغار.

ولكن الصغـار الذين كانوا على اتفاق مسبق حول الأمر، فقد اداروا ظهورهم لها، وغادروا الغرفة، فلحقت بهم واضافت:

ـ اذا كنتم تحبـون هذا الارنب، فبامكانكم اخذه في نزهة إلى الخارج سوف اربطه لكم برباط جميل، حول عنقه، فاذهبوا به في مشوار صغير، ثم اذهبوا إلى السيدة ديوميرا، اروها الارنب، واطلبوا منها ان تقوم بذبحه وسلخه لنا. انها ماهرة جداً في مثل هذه الامور.

كانت هذه هي الـطريقـة السليمـة مع الاطفـال، الـذين يتمسكون بالاشياء التي يحبونها، فينفذون الاشياء المحببة لديهم، ويتركون التفكير ببقية الاشياء.

اخيراً، عثرت الزوجة على شريط ليلكي، ربطته حول عنق الحيوان، ليستعمله الاطفال كلجام، وتعارك الاطفال حول من سيمسك منهم باللجام، وسحبوا الارنب المختنق، وغير الراغب في الحركة خلفهم، وقالت لهم امهم:

Twitter: @ketab_n

ـ يمكن للسيدة ديوميرا ان تأخذ اطراف الارنب، او يمكنها ان تحتفظ بالرأس اذا ارادت، ويمكنها ان تأخذ الاثنين معاً، او ما ترغب فيه.

ولم يكد الاطفال يخرجون من البيت، حتى كانت غرفة ماركوفالدو قد وقعت تحت الحصار، وقام الاطباء، والحرس والممرضون ورجال البوليس بغزوها، ووقف ماركوفالدو بينهم، تظهر عليه امارات الموت اكثر من امارات الحياة، لقد فقد القدرة على النطق والحركة، وهو يستمع إلى صيحاتهم:

ـ اين الارنب الذي اخذته من المستشفى؟ ارنا الارنب، ارنا اياه، اياك لمسه، انه معد، محقون بجراثيم مرض خطير.

قادهم ماركوفالدو كالهائم نحو القفص، فلم يجده، فسأل زوجته:

ـ هل اكلتم الارنب؟

اجابت:

ـ لا!

فسألها ثانية:

ـ اين هو اذن؟

فاجابت:

ـ عند السيدة ديوميرا؟

فانطلق الموكب إلى بيت السيدة (ديوميرا) باحثين عن صيدهم، فطرقوا الباب، وسألوها عن الارنب، فاجابت بدهشة:

ـ ارنب، اي ارنب، هل انتم مجانين؟

وحين رأت السيدة (ديوميرا) بيتها يمتليء بالغرباء، بازيائهم الرسمية يبحثون عن الارنب، كانت على وشك ان تصاب بنوبة قلبية، فهي لا تعلم شيئاً عن ارنب ماركوفالدو.

اما الاطفال، فلم يأخذوه إلى بيت السيدة (ديوميرا)، فقد قرروا ان ينقذوا الارنب من الموت، لذلك اخذوه إلى مكان آمن، حتى يلعبوا به اطول فترة ممكنة، ومن ثم يطلقون سراحه. لذلك، فبدلاً من ان يتوقفوا به عند بيت السيدة (ديوميرا)، قرروا ان يطلقوه، ليتسلق احد السطوح ويهرب ويخبروا امهم فيما بعد انه قد قطع لجامه وهرب، ولكنهم لم يروا في حياتهم ارنباً كهذا الارنب، فهو لم يكن يرغب في الهروب، او على الاصح، انه غير قادر على

Twitter: @ketab_n

ذلك، حيث بدت عملية تسلق الدرجات بالنسبة له عملية صعبة للغاية وكان كلما خطا خطوة ينكمش مرتعباً، مما حدا بالاطفال في نهاية الأمر إلى التقاطه ورفعه بانفسهم إلى السطح.

على السطح، حاول الأطفال ان يجعلوا الارنب يهرب منهم، ولكنه لم يفعل، وحاولوا وضعه على حافة السطح ليروا قدرته على السير، كما تسير القطط، الا انه كان واضحاً ان الارنب يعاني من الدوار.حاولوا وضعه على هوائي التلفزيون ليعرفوا قدرته على حفظ توازنه، الا انه سقط ارضاً مما عجل في نفاذ صبرهم، وضيق صدورهم، فقطعوا اللجام، تاركين الحيوان حراً طليقاً في مكان كثير المسارب والمسالك، وكلها مفتوحة امامه مثل تعرجات البحر العريضة، وقفلوا عائدين إلى بيتهم. حين احس الارنب انه قد اصبح وحيداً، اخذ يغامر بنقل خطواته ببطء ناظراً حوله، محاولاً تغيير اتجاهه ببعض القفزات الصغيرة المتتالية، لقد ولد هذا الحيوان اسيراً، ورغبته في الحرية لم تكن تتعدى رؤية الافق الرحب، وكانت اعظم الهدايا في هذه الحياة، هي الشعور ولو لدقيقة واحدة بعدم الخوف، وها هو الآن يستطيع الحركة، دون ان يخيفه شيء، ولاول مرة في حياته، صحيح ان المكان لم يكن مألوفاً لديه، ولكنه شبيه بالمألوف، وصحيح انه لم يكن بامكانه التعامل مع هذا المكان او فهمه، فبدأ يقفز بين السطوح، مع انه كان يشعر بمرض غامض يستشري داخله، مما جعل هذا العالم يبدو كأنه شيء غير مهم، او غير مثير بالنسبة له، وحتى القطط التي رأته، انسحبت متوارية، لانها لم تكن تعرف كنه هذا الشيء الذي يقفز امامها.

اما سكان (العليات) او الطوابق العليا، فاخذوا يطلون من النوافذ العليا لمنازلهم، او من طاقات التهوية العليا، ناظرين إلى الارنب، كحدث غريب مشوق، وقام بعضهم بوضع اطباق السلطة على حواف المنازل، في حين اكتفى بعضهم بالتلصص من خلف النوافذ وقام آخرون بالقاء بقايا ثمار الاجاص على السطح، وقام بعضهم بالقاء ثمار الجزر، مما جعل الارنب يحاط بدائرة من الطعام الشهي اللذيذ، ودائرة من الاصوات الصارخة تصيح:

- ارنب؟.. ارنب مسلوق؟.. ارنب محشو؟.. ارنب مشوي.

ومع كل الجوع الذي كان يحس به الارنب، الا انه لم يكن يثق بهم، وكان

Twitter: @ketab_n

يشعر ان كل هذه العروض التي تقدم له، ما هي الا طعم، لانه كان يدرك انه بعد كل عرض جذاب، يقدمه له الانسان، كان يعاني ألماً شديداً، من جراء التجارب التي كانت تجرى عليه، كأن يحقن بابرة في لحمه، او يشرط بمشرط، او يسجن في قفص مغلق، او يربط بشريط حول عنقه ويجر. . وكانت هذه الوقائع المأساوية والمؤسفة، قد اتحدت مع الالم الجديد، الذي يحس به يستشري في اجهزته الداخلية، ومع علمه المسبق بالموت والجوع، الاّ انه كان يعلم علم اليقين مع كل تلك الاعمال المقلقة لراحته، ان الجوع، هو الشيء الوحيد الذي يمكن التخلص منه، معترفاً بان هؤلاء البشر، هم مجموعة من المخادعين، الذي يستطيعون ان يوفروا بالاضافة لهذه الالام القاسية، حساً بالحماية والامن اللذين يحتاج اليهما، خاصة الأمن والدفء المنزلي، ولهذا بدأ بالأكل، متابعاً خيط هذه الانواع من الطعام، مقرراً الاستسلام لقدره، ومحاولاً ان يلعب لعبته مع بني البشر، وليحدث ما يحدث، مع علمه الاكيد، ان ذلك سيقوده للاسر او الموت، الا انه كان راغباً بالتمتع بهذا المذاق الرائع واللذيذ للخضرة الطبيعية التي يتذوقها للمرة الاولى، وربما كانت الاخيرة. وكان كلما اقترب من نافذة من نوافذ السطح، يتوقع ان تخرج منها يد للامساك به، يلاحظ شيئاً غريباً، فما ان يقترب من اي نافذة حتى يسمع صوت اغلاقها وكأنها مصيدة ترفض ان تصطاده، فيعود ثانية نحو طعم آخر، من الطعوم الكثيرة المنتشرة حوله، ويحاول ان يسير معها إلى النهاية ولكنه كان يفاجأ باغلاق النوافذ واحدة بعد الاخرى، واخيراً تم سحب كل انواع الطعام التي حوله. واختفى المراقبون الذين كانوا يتلصصون عليه، واغلقت النوافذ، والطاقات والابواب وهجرت الشرفات المطلة على السطح، كل ذلك حدث، عندما مرت سيارة البوليس، وهي تجوب الشوارع معلنة بمكبرات الصوت:

ـ تحذير تحذير

يرجى الانتباه

لقد ضاع ارنب ابيض اللون

مصاب بمرض معد خطير

وغير صالح للاكل

وحتى مجرد لمسه قد ينقل الجراثيم الخطرة والضارة

Twitter: @ketab_n

على من يراه

ان يقوم باخطار اقرب مركز بوليس، او مستشفى، او دفاع مدني

وحين انتشر الخبر بين ساكني السطوح، والمطلين عليها، وقف كل واحد منهم في حالة تأهب، من اجل اعطاء الاشارة للمتربصين بالارنب، لحظة مشاهدته على السطح. ثم يختفي، وكأن اقتراب هذا الارنب منه، كاقتراب الطاعون او الجراد. وقد استمر الارنب، يقفز قفزاته المرتجفة، متشبثاً بالزوايا، شاعراً بالوحدة القاتلة، وفي اللحظة التي اكتشف فيها حاجته للاقتراب من بني البشر، تفاقمت مشاعره حتى اصبحت لا تحتمل.

في ذلك الوقت كان(كافاليير اولريكو) الصياد العجوز، يعبىء بندقيته بالرصاص، متأهباً لاخذ مكانه على الشرفة، مختفياً خلف المدخنة، مستغلاً فرصة ظهور الارنب خلف الضباب ليطلق النار عليه، ولكن انفعالاته القوية التي سيطرت عليه وهو يفكر بهذا الحيوان الشيطاني، جعلته يخطيء الهدف بقليل، فضربت الرصاصة بلاط السطح، وتساقط نثارها على الارنب، اما الارنب الذي سمع ازيز الرصاصة، وتألم لاختراق احدى الشظايا لاحدى اذنيه، فقد ادرك انها الحرب، وان هذه اللحظة قد قطعت كل علاقة له ببني البشر، وانه اصبح يحتقر الانسان، احتقاراً لا رجعة عنه.

كان السطح مغطى بحديد صدىء قديم، منحن، ينتهي إلى الفراغ، في ذلك الضباب اللانهائي، وهناك غرس الارنب اطرافه الاربعة بحذر داخل المزراب، ثم ترك نفسه ينزلق بآلامه واوجاعه، نحو الموت، وباختياره هذه المرة.

ولكنه ما ان خرج من المزراب، نحو الفضاء، حتى كان قد هبط بين يدي رجل المطافيء، الذي يرتدي قفازين في يديه، ويقف فوق سلم منتقل متأهباً لاي طاريء.

لف الرجال الارنب بسرعة، ووضعوه في سيارة الاسعاف، مجردين هذا الحيوان من كل امارات الكرامة والكبرياء، التي تليق بحيوان مثله، وحين انطلقت به سيارة الاسعاف، متجهة نحو المستشفى، حملت معه، ماركوفالدو، وزوجته واطفاله، كي يدخلوا الحجر الصحي، لمراقبتهم، ولاجراء سلسلة طويلة من الفحوص عليهم، وحقنهم بأمصال لمقاومة الامراض التي يحتمل اصابتهم بها.

Twitter: @ketab_n

الشتاء

١٢ . الموقف الخطأ

اي انسان، لا يحب منزله، او لا يجد اي ارتباط بذلك المنزل، لابد له ان يهجره إلى اي مكان يفضله، وافضل مكان في الأمسيات الباردة هو دور السينما. فقد كان ماركوفالدو يهرب من بيته لمشاهدة الافلام، وكان مغرماً بالافلام الملونة التي تبثها الشاشة الكبيرة، ففيها الكثير من الاشياء الرائعة التي لا يستطيع تحقيقها او الوصول اليها مثل البراري الواسعة، والجبال الصخرية العالية، والغابات الاستوائية، والجزر التي يعيش فيها الانسان مطوقاً بالازهار والورود. لذلك كان يشاهد الفيلم مرتين، ولا يخرج من دار السينما، الا بعد ان يغلقوا ابوابها، وحتى بعد خروجه منها، تبقى مخيلته سابحة في اجواء ذلك العالم، متذوقاً طعم العيش في تلك المناطق، ومتنفساً رائحة تلك الالوان الجميلة التي مرت من امامه.

الا ان العودة ثانية إلى البيت، في الليل الممطر، وانتظاره في محطة الترام رقم (٣٠)، يجعل ماركوفالدو يدرك تمام الادراك، ان حياته التي يعرفها جيداً لن يطرأ عليها اي تغيير، وانه لن يعرف سوى مواقف الترام، واشارات المرور، وغرفة نومه التي تشبه القبو، ومدافىء الغاز، ومجففات الغسيل، والمستودعات، وغرف الشحن، مما يجعل المناظر الجميلة، والالوان المبهرجة، تبهت امام عينيه، متحولة إلى عالم شاحب مبتذل حزين.

Twitter: @ketab_n

كانت احداث الفيلم الذي رآه ذلك المساء، تدور في غابات الهند، حيث يخرج البخار من الارض المليئة بالمستنقعات، والتي مرت غاباتها امام عينيه كالسحب، والثعابين التي تتسلق تماثيل المعابد الاثرية التي ابتلعتها تلك الغابة.

حين خرج من دار السينما، إلى الشارع، فتح عينيه واغلقهما عدة مرات، لكنه لم يكن يرى اي شيء على الاطلاق، حتى ارنبة انفه لم يستطع رؤيتها، فقد كانت المدينة غارقة في الضباب الذي غزاها، خلال تلك الساعات التي قضاها داخل دار السينما.

كان ذلك الضباب قد غطى كل شيء، كتم الاصوات، وحول المسافات والساحات إلى مساحة لا نهائية، ومزج الاضواء كلها، فتحولت إلى بصيص من نور لا ملامح له، وجعل المكان بلا شكل.

توجه ماركوفالدو بشكل آلي، إلى موقف محطة الترام رقم (٣٠)، فاصطدم انفه بعنف بلوحة الاعلان. وادرك في تلك اللحظة انه سعيد. كان الضباب قد محا العالم من حوله، مما سمح له بالاحتفاظ بوهج نور الشاشة الكبيرة في عينيه. حتى البرد كان قد خف من جراء موجة الضباب هذه، وكأن المدينة قد سحبت فوقها بطانية. التف ماركوفالدو بمعطفه الثقيل، وفي هذا الوضع جعل ماركوفالدو يحس بانه معلق في الفراغ، بعيد عن اية مشاعر خارجية، ولذا فهو يستطيع تلوين هذا الفراغ بصور عن الهند، ونهر الغانج، وغابات كلكتا التي شاهدها في الفيلم.

وصل الترام كشبح يسير ببطء، فجلس ماركوفالدو في مؤخرة الترام، معطياً ظهره للمسافرين الآخرين، ناظراً من خلف النوافذ إلى هذا الفراغ الليلي، الذي تحاول الاضواء الساقطة عليه، ان تجلو بعض معالمه الخفية، وكان الفيلم الذي شاهده من قبل لم ينته بعد، فالشاشة اللانهائية ماتزال امامه، والاحلام تداعب خياله، وقد استغرق ماركوفالدو في هذه الاحلام، لدرجة انه لم يسأل نفسه عن المحطات التي يمر بها، وهل وصل إلى محطته ام لا، مع انه كان قد ترك محطته خلفه، وهو ينظر نظرات متمعنة في المناظر التي تمر من امامه. ولانه لم يستطع فك تلك الالغاز التي تمر من امامه، فقد اتخذ قراراً لا رجعة فيه، وهو انه يتوجب عليه النزول في المحطة التالية، حتى لو لم

Twitter: @ketab_n

تكن محطته. وحين وصل إلى الباب، وخطا خطواته الاولى للخارج، تلفت حوله، لعله يتعرف على اية نقطة يستطيع البدء منها، الا ان الظلال القليلة، والاضواء التي استطاعت عيناه التقاطها واكتشافها لم تساعده على تشكيل صورة معروفة له. لقد نزل في الموقف الخطأ، وهو لا يعلم اين هو الآن، ومع انه كان يدرك انه يستطيع التعرف على طريقه، اذا سأل احد المارة، الا ان المكان الموحش المقفر، في هذا الوقت المتأخر من الليل، واحساسه بالعطش، جعلاه مهموماً غير قادر على تمييز اي شيء.

وبينما هو كذلك، رأى شبحاً فانتظره ريثما يقترب، كان يتحرك مبتعداً؛ ربما كان يقطع الشارع أو يمشي باتجاه وسط الشارع، قد لا يكون شخصاً يمشي راجلاً بل احد راكبي الدراجات، التي لا تمتلك اضواء كاشفة فصاح عليه:

ـ هيه، هيه ايها السيد، هل تستطيع ان تدلني على الطريق، هل تستطيع ان تدلني على الطريق إلى بانكرازيو بانكرازييتي؟

فأجابه الشبح:

ـ من هذا الطريق!

ثم تحرك من امامه، حتى اصبح غير مرئي، فصاح به ماركوفالدو:

ـ إلى اليمين ام إلى الشمال؟

ولكنه كان كمن يخاطب الفراغ، فجاءه الصدى (مال) او ربما كان (مين) ولم يكن قادراً على رؤية الرجل، فلم يعرف هل يتجه إلى الشمال ام إلى اليمين.

بدأ ماركوفالدو، يسير نحو بصيص من الضوء، خيل اليه انه آت من الاتجاه المعاكس، وانه غير بعيد عنه، ولكن تبين له بعد ذلك ان المسافة بعيدة بينه وبين ذلك الضوء، وكان عليه ان يقطع ساحة عريضة، في وسطها جزيرة من العشب، وكانت الاشارة الوحيدة الموجودة على تلك الجزيرة، تشير إلى اليمين.

كان الوقت متأخراً جداً، ولكن ماركوفالدو كان يمني نفسه ان يجد بعض المقاهي ماتزال مفتوحة الابواب، او يجد بعض الفنادق القادرة على استقباله، ولكن السهم الوحيد الذي يشير إلى مكان ما، كان يحمل كلمة (بار) وكان

Twitter: @ketab_n

المكـان الذي توجه اليه غارقاً في الظلام الدامس، مغلق الابواب. ملتفاً في غلالة السكون.

بدأ ماركوفالدو بالتفكير، المكان مايزال بعيداً جداً، ومن الافضل له ان يتجه إلى ضوء آخر، لعله يجد فيه غايته، وكان ماركوفالدو يسير دون ان يعرف اين يتجه، هل يتبع خطاً مستقيمًا، او ينحرف باتجاه ما، وهل النقطة المضيئة التي يتجه اليها، ماتزال هي نفسها بعد ان تضاعفت مرتين او ثلاثاً، ام انها غيرت موقعها.

كان الفضاء امامه اسود، وكان وهو يتحرك خلال ذلك الظلام يشعر بشيء يتسلل داخل معطفه، ويتغلغل في انسجة بدنه، ثم ينحل خلال خيوط القماش التي تمتصه كالاسفنج.

لدى اقترابه من منطقة الضوء، تبين لماركوفالدو انه قد دخل نزلاً قديمًا، وكان النزلاء داخل النزل، يقفون امام منضدة الشراب، ولكن لسوء الاضاءة، ولتسلل الضبـاب إلى المكـان، فقد بدت الاشكال غير واضحة، وبدا ذلك النـزل، مثـل الخانات القديمة التي كان يراها في الافلام، الآتية من الازمنة الغابرة، او البلدان البعيدة.

اخذ يسأل الحضور:

ـ ايها السادة، ايها السادة، انني ابحث عن طريق بانكرازيو بانكرازيتي هل يمكنكم ان تدلوني عليها ايها السادة؟

ولكن اسئلتـه تلك ضاعت في ضجيج الحـانة، وضحك السكارى، الذين ظنوا انه سكران مثلهم، وحين لم يتلق جواباً واضحاً، رضخ لمطالبهم، فجلس يدفيء نفسه، واستجاب لرغبة الواقفين على طاولة الشرب، فأخذ ربع لتر من الخمـر كبـداية، ثم اخـذ نصف لتر آخر، ثم تناول بعض الكؤوس الاخرى، وحين خرج من النزل، كان قد فقد توازنه، واخذت مشكلة العودة إلى البيت تبدو اصعب من السابق، اضافة إلى ان الضباب كان قد اصبح اكثر كثافة، بحيث لم يعد يرى أي شيء امامه.

ومع الدفء الذي تسلل إلى بدنه، بعد تناول كؤوس الخمر، استطاع ماركوفالدو ان يسير اكثر من ربع ساعة، بخطوات غير ثابتة، وكان يشعر ان عليه ان يتقدم من اليمين إلى اليسار، لمعرفة عرض الرصيف، وكان يتحسس

Twitter: @ketab_n

الجدران بيده، حتى لا يسقط او يضيع طريقه.

وابتدأ الضباب الذي طغى على مخيلته يتلاشى شيئاً فشيئاً، وهو يتابع سيره عبر الطرق، اما الضباب الخارجي فقد كان يزداد كثافة، وتذكر وهو يسير، انهم قد اخبروه في النزل، انه يتوجب عليه ان يسير في شارع معين مئة ياردة، وبعد ذلك يتوقف ليسأل الناس مرة اخرى، ولكنه لم يكن يعلم المسافة التي قطعها منذ غادر النزل، ولم يكن يعلم انه كان قد ابتعد عنه او انه مايزال يدور حوله.

كانت الشوارع خالية، غير مأهولة، واستطالت الجدران حتى اصبحت اطول من جدران المصانع، ومع انه كان متأكداً انه سيجد عند احد المنعطفات لوحة رخامية، مكتوباً عليها اسم الشارع، الا ان الانارة في تلك المنطقة، كانت غير كافية للوصول إلى تلك اللافتة، لذلك لم يتمكن من قراءتها، ولكن اليأس لم يداخله، فقد تسلق لوحة اشارة ممنوع الوقوف، حتى لامس انفه اللوحة الرخامية. وحدق فيها ملياً، ولكن وجد ان الاحرف قد بهتت، وتحسس جيوبه، فلم يجد اي عود ثقاب، ولم يستطع ان يفك حرفاً واحداً من حروفها، فنظر إلى اعلى اللوحة الرخامية، فرأى حائطاً ينتهي إلى قمة مسطحة، فتسلق الاشارة حتى وصل تلك القمة، وقفز إلى الاعلى، وهناك لمح فوق حافة الجدار، لوحة اخرى كبيرة بيضاء، فسار نحوها بخطوات ثابتة، على حافة الجدار، حتى وصلها، وكان ضوء الشارع قد كشف الاحرف السوداء على خلفية اللوحة البيضاء، فقرأ ماركوفالدو:

ـ (يمنع منعاً باتاً الدخول لغير المخولين بالدخول)

كانت حافة الجدار عريضة جداً، بحيث كان بامكانه ان يوازن نفسه وهو يسير عليها، وقد وجد ماركوفالدو ان السير هنا افضل من السير على الرصيف، ذلك ان الضوء العالي هنا، يجعله يعرف المكان الذي يضع في قدميه، فقد انار هذا الضوء شريطاً طويلاً، خلال هذا الظلام الحالك ولكن بعد ان سار مسافة معينة، وجد ان الجدار قد انتهى، ووجد ماركوفالدو نفسه امام بوابة كبيرة مكتوب عليها بحروف كبيرة (لا) ووجد اشارة تشير له ان يتجه إلى اليمين، فاستمر ماركوفالدو بالسير، وهو يتبع الاشارات، من زاوية إلى اخرى، ومن تقاطع إلى آخر، ومن انحراف إلى غيره، وحين وجد نفسه قد

Twitter: @ketab_n

وصل إلى نهاية الطريق غير المنتظم الذي سار فيه طوال تلك الفترة، اكتشف بان الطريق يقود إلى اتجاه آخر مغاير فسار فيه، وبعد العديد من المنعطفات، اضاع ماركوفالدو قدرته على معرفة الاتجاه الذي يسير فيه، او المكان الذي يمكن ان يقفز منه اذا رغب في العودة إلى الشارع.

قال ماركوفالدو لنفسه:

ـ هل اقفز؟ وماذا سيصيبني اذا كان الارتفاع كبيراً؟

لذلك انبطح على حافة الجدار، محاولاً ان يخمن المسافة بينه وبين الارض، ويعرف الاتجاه الذي سيقفز اليه، الا انه لم يكن هناك بصيص من الضوء، يصل إلى الارض، لذلك خاف ماركوفالدو، وظن ان قفزته التي يعتقد انها قصيرة ستقوده إلى المجهول، لذلك وجد ان الخيار الوحيد المتبقي امامه هو ان يتابع السير على الجدار، مسلمًا امره للطريق الذي يقوده حيثما يشاء.

كان يفكر بالهرب، هذه الفكرة التي كان يتمنى لو يستطيع تطبيقها، ولكن ظهر امامه سقف مسطح، وضوء شاحب قريب من الحائط، فاعتقد انه ربما يكون سقف بناية من الاسمنت، فبدأ يسير عليها، ولكنه ندم، لانه لم يغامر بالقفز قبل ان يصل إلى هذه المنطقة، ذلك انه قد قطع جميع النقاط التي كان بامكانه ان يتعرف على الطريق من خلالها، فها هو يبتعد عن خط الضوء، وكل خطوة إلى الامام، قد تقوده إلى حافة السقف، وحينها لن يكون امامه سوى الفراغ، هذا الفراغ الذي مايزال لغزاً، حيث رأى اسفل السقف بعض اشعاعات الضوء الصغيرة، كأنها تنبعث من مسافة بعيدة.

لكن اذا كانت هذه هي اضواء الشارع، فان هذا يعني ان الارض قد بعثت ثانية امامه، مع ان هناك بعض الاضواء على السطح، حمراء وخضراء، مبعثرة باشكال غير منتظمة مثل اللآلىء، وبينما كان يمعن النظر بتلك الاضواء المبعثرة، مقارناً بينها، خطا احدى خطواته، فسقط للاسفل على رأسه، فاعتقد انه ميت لا محالة، الا انه ولدهشته وجد نفسه على ارض ناعمة ممسكاً بيديه بعض الاعشاب، لقد وقع دون ان يصاب باذى، وسط حقل اخضر، وظهرت امامه الاضواء الخافتة التي كان ينظر اليها قبل قليل عن بعد، قريبة جداً، ووجد انها عبارة عن خط من الاضواء الصغيرة المثبتة على مستوى سطح الارض، انه حقاً مكان غريب، لكن وضع الاضواء فيه اكثر غرابة، وهو على

Twitter: @ketab_n

اي حال انسب مكان بالنسبة له، ذلك ان هذه الاضواء ستدله على الطريق امامه. وقد وجد ان خطواته التي خرجت من الحقل المعشب، بدأت تسير الآن على شارع معبد بالاسفلت، يمر من منتصف الحقل، كشارع عريض جداً، محاط بهذه الاضواء المشعة المثبتة على سطح الارض وفجأة ظهرت امامه اضواء ملونة عالية جداً، تظهر ثم تختفي، فقال ماركوفالدو لنفسه:

ـ من المؤكد ان هذا الشارع المضاء سيقودني إلى مكان ما.

وغذ ماركوفالدو السير على ذلك الطريق حتى وصل إلى ما يشبه تقاطع طرق، كل طريق يؤدي إلى طريق فرعي آخر محاط بتلك الاضواء الخافتة، والارقام البيضاء الضخمة فاحس ماركوفالدو بالحيرة والاسى، وهو لا يعرف اي طريق يختار، وماذا سيفعل حتى يخرج من هذا الحقل العشبي المسطح، وهذا الضباب الرهيب امامه. ولكنه لم يكد يفكر بالامر، حتى رأى رجلاً يحرك امام اشعاعات الضوء لوحين مشعين، يرتدي لباساً اصفر، ويلوح بلوحيه، كما يفعل عمال محطات القطار، فركض ماركوفالدو باتجاه الرجل، فبادره بالقول وهو يلهث:

ـ هيه، هيه، اسمع نحن الآن وسط هذا الضباب كيف استطيع ان... فاتاه صوت الرجل ذي الرداء الاصفر:

ـ لا تقلق، على ارتفاع الاف الامتار، لن يكون هناك ضباب هيا تقدم، فقد سبقك الآخرون، هيا اركب.

لم يفهم ماركوفالدو تلك الكلمات، ولكنه وجد في تلك الكلمات بعض التشجيع، فهناك العديد من الناس التائهين مثله، وهو سعيد بالانضمام اليهم، لذلك تقدم دون ان يطرح اسئلة اخرى على الرجل، وصعد الدرجات الصغيرة المريحة، المحاطة بدرابزينين ابيضين، وسط الظلام، وعند المدخل المنخفض استقبلته احدى الفتيات، انحنت له باحترام، فاستنكر ماركوفالدو ان تكون كل هذه الاحترامات له، ولكنه انحنى لها ضارباً قدميه بالارض:

ـ احتراماتي المتواضعة سنيورا.

كان البرد قد انهكه، واستهلك كل قدراته، فاحس بالدوخان، ولم يستطع رؤية صف الاضواء المشعة، ولكنه ادرك انه ليس في منزل، فتساءل

Twitter: @ketab_n

وهو يجلس على مقعده

ـ اين يمكن ان اكون؟ لاشك انه باص طويل ذو مقاعد فخمة مريحة؟

وفرح ماركوفالدو لهذه المغامرة، فهو لم يركب الباص طوال حياته، وقد اختار الترام، لرخص تذكرته، ولكنه الآن ضائع، ضائع في مكان بعيد جداً عن الحي الذي يعيش فيه، ووسيلة المواصلات الوحيدة في هذا الحي، هي الباصات، فقال في نفسه:

ـ كم انا محظوظ، انني ركبت هذا الباص، كي اصل في الوقت المناسب يالها من مقاعد لينة مريحة، من الآن فصاعداً سوف اركب الباص، حتى ولو اجبرت على اطاعة الاوامر.

كانت الاوامر التي تصدر من رجل بالزي الرسمي تقول:

(يرجى ربط الاحزمة والاقلاع عن التدخين)

فتقدم ماركوفالدو بين المقاعد باتجاه الرجل وسأله:

اسمح لي ايها الجابي ان اسألك فيما اذا كانت محطتنا القادمة (بانكرازيو بانكرازييتي).

فتعجب الرجل وقال:

ـ عن ماذا تتحدث ايها الرجل، محطتنا الاولى ستكون بومبي، نتجه بعدها إلى كالكتا، ثم إلى سنغافورة.

نظر ماركوفالدو حوله، بعد ان الفت عيناه الاضواء، فوجد الرجال الذين يشغلون المقاعد، من الهنود الملتحين المعممين، ووجد النساء القليلات الموجودات في الداخل، ملفوفات بالساريات المطرزة، وعلى جباههن الوشم الهندي. وكان الليل من خلف النوافذ مرصعاً بالنجوم اللامعة، بعد ان اجتازت الطائرة الضباب الكثيف، واخترقت الاجواء، وهي الآن تطير في سماء الله الواسعة على ارتفاع عالٍ جداً.

Twitter: @ketab_n

الربيع

١٣ . حيث يكون النهر اكثر زرقة

لقد مر وقت طويل على ذلك الزمن، الذي كان فيه الحصول على الاغذية البسيطة لا يقود إلى المخاطر، والتعب، ونصب الشراك للمتسوقين، أما الآن فلم يكن يمر يوم الا وتنشر فيه الصحف اخباراً عن اكتشافات مرعبة عن الحوادث التي تحصل مع المتسوقين، مثل: جبنة مصنوعة من البلاستيك، زبدة من الشمع، السموم والمبيدات الموجودة بنسبة عالية في الخضروات والفواكه اعلى من نسبة الفتيامينات، دجاج محشو بالحبوب الاصطناعية لتسمينه، هذه الحبوب التي يمكن ان تحول الرجل الذي يأكل فخذ دجاجة، إلى دجاجة. اما السمك الذي صيد في العام الماضي من ايسلندا، فقد كانوا يجرون عمليات تجميلية لعينيه حتى يظهر وكأنه قد صيد بالامس القريب، كذلك قيل انه وجدت بعض الفئران في زجاجات الحليب، وانه لم يكشف المصدر فيما اذا كانت تلك الفئران حية أم ميتة. وبدلاً من وجود زيت الزيتون في العلب المعدنية، كانوا يضعون شحم البغال المسنة، بعد تنقيته بعناية.

وحين كان ماركوفالدو يستمع إلى تلك الاخبار، في المقهى أو في العمل كان يحس برفسة بغل في معدته، او يشعر بفأر يركض في مريئه.

اما في المنزل، فقد تغيرت الصورة ايضاً، ففي الوقت الذي كان ينظر فيه ماركوفالدو إلى سلة زوجته دوميتيلا التي تحتوي على الثوم، والباذنجان،

Twitter: @ketab_n

والحلويات الملفوفة بورق خشن من محل الحلويات، بسعادة وفرح، اصبح الآن ينظر اليها بخوف وهلع، وكأن اعداءه الموجودين فيها، قد تسللوا من جدران منزله. وقد اقسم ماركوفالدو بينه وبين نفسه ان يوفر لعائلته طعاماً لا يمر من بين ايدي السماسرة والمضاربين.

وفي طريقه إلى العمل، كان يشاهد احياناً الصيادين وهم يحملون الصنانير والاحذية المطاطية متجهين نحو النهر، فيقول لنفسه:

ـ حقاً انها الطريقة المطلوبة.

ولكنه حين يفكر بالنهر الذي يمر من المدينة، وبانواع القمامة والقاذورات التي تلقى فيه، ومياه المجاري التي تصب فيه ايضاً، تمتليء نفسه بالقرف والاشمئزاز فيقول لنفسه:

ـ يجب ان ابحث عن مكان يكون الماء فيه ماءً بحق، والسمك فيه سمكاً فعلاً، وهناك سأرمي صنارتي للصيد.

بدأت فترة النهار تطول، فاخذ ماركوفالدو يركب دراجته بعد الدوام، ويقوم برحلة استكشافية على طول مجرى النهر، قبل دخول النهر للمدينة، ويتابع جداوله الصغيرة، التي تشكل روافده، وكان جل اهتمامه يتركز على تلك المناطق التي تجري فيها المياه بعيداً عن الشوارع المعبدة، فكان يسير بين اشجار الصفصاف راكباً دراجته إلى اقصى حد تستطيع السير فيه بين الاشجار، ثم يترك الدراجة بين الاحراش، ويسير مشياً على الاقدام، حتى يصل إلى الجدول. وحين وصل إلى بعض القمم الشديدة الانحدار، الملتفة بالنباتات، لم يستطع ان يتابع الاثر، ولم يعرف اتجاه النهر، فأحس بالضياع، ولكنه ما إن دفع الاغصان جانباً، حتى رأى بركة ماء ساكنة في اسفل القمة، على بعد عدة اقدام، كانت البركة عبارة عن بحيرة صغيرة هادئة، وهي احدى احواض النهر، ذات لون ازرق صافية، فلم تمنعه مشاعره من ان يفحص ويدقق النظر، في تحركات مياه الجدول، وتموجاته، فاتضح له ان عناده واصراره لم يذهب سدى، حين رأى حركة زعنفة سمكة تضرب سطح الماء، تبعتها حركات زعانف اخرى.

حينها شعر ماركوفالدو بسعادة حقيقية، ولم يصدق ما رأته عيناه، فصاح بسرور:

Twitter: @ketab_n

ـ هذا هو المكان المناسب، انه مكان تجمع اسماك النهر، انه بؤرة الصيد، ومن المحتمل الا يكون احد غيري قد عرف هذا المكان.

وفي طريق العودة إلى البيت، مع هبوط الظلام، بدأ ماركوفالدو يضع الاشارات التي ستدله على الطريق، حين يعود إلى الصيد، فأخذ يقطع جذوع اشجار الدردار، او يجمع اكوام الحجارة في بعض المناطق وبعد ان وضع العلامات التي ستدله على الطريق، بدأ ماركوفالدو يعد العدة لتجهيز نفسه، وقد عرف عشرة من الجيران والعاملين في شركته من الصيادين المهرة، واخبر كل واحد منهم على حدة بأمر البحيرة الصغيرة الزرقاء، مؤكداً لكل واحد منهم ان المكان مليء بالسمك وان لا أحد غيره يعرف هذا المكان،لقد جمع كل ما يحتاج اليه من هنا وهناك، ليصبح افضل صياد يمكن ان تقع عليه العين، فها هو لا ينقصه شيء، الخيط، والصنارة، والعصي، والشبكة والطعم، والحذاء والسلة.

وذات صباح جميل، وعلى مدى ساعتين من الزمن، قبل ان يحين موعد ذهابه للعمل، توجه ماركوفالدو إلى ذلك المكان من النهر، الذي لا يحتاج فيه الصيد لاية مهارة، فما ان يضع صنارته في الماء حتى تعلق بها الاسماك وما ان يطرح شبكته حتى يقفز اليها السمك بطيب خاطر. وما ان حان وقت الرحيل، حتى كان قد ملأ سلته بالسمك، فأخذ سلته، وسار بين اشجار الحور متجهاً إلى اعلى النهر، ولكنه ما إن سار مسافة قصيرة حتى سمع صوتاً يناديه من بين الاشجار.

ـ هيه، انت!!

كان هناك شخص يرتدي قبعة حارس، وينظر إليه شزراً، فرد عليه ماركوفالدو، كمن احس بخطر مجهول:

ـ نعم، ما الأمر؟

ـ من اين اصطدت هذا السمك؟

فاجاب ماركوفالدو وقد احس بقلبه يسقط في جوفه:

ـ لماذا؟

ـ اذا كنت قد اصطدت السمك من تلك البحيرة، فالق به فوراً اليها!!

ـ لماذا؟

Twitter: @ketab_n

ـ الا ترى المصنع الموجود هنا؟

واشار الرجل إلى مبنى في أعلى النهر، نظر اليه ماركوفالدو، فرأى الدخان يصعد منه حتى يعانق السماء. ورآه يلقي في جوف النهر غيمة ثقيلة ذات لون بنفسجي، فاضاف الرجل:

ـ الم تر لون الماء، انه مصنع الدهانات، لقد تم تسميم الماء في النهر، بسبب ذلك اللون الازرق، وهذا يعني ان الاسماك ايضاً قد تسممت، الق الاسماك في النهر، والا اضطررت لمصادرتها منك.

كانت نفس ماركوفالدو تراوده على رمي الاسماك بعيداً، وفي اسرع وقت ممكن، فقد كانت رائحتها كافية لتسميمه، ولكنه لم يرد ان يخذل نفسه امام الحارس فقال:

ـ واذا قلت لك انني اصطدت هذه الاسماك من اعلى النهر، ستكون القصة مختلفة؟

ـ بل ساصادرها واخالفك ايضاً!!

ـ لماذا؟

ـ لان تلك المنطقة لتربية الاسماك، الم تقرأ اليافطة المكتوبة هناك؟

فقال ماركوفالدو بسرعة:

ـ يارجل، انا احمل الصنارة والشبكة ايضاً للمباهاة، وكي اضحك على اصحابي فقط، لقد اشتريت هذه الاسماك من متجر القرية المجاورة

فقال الرجل:

ـ اذن كل شيء على مايرام، ولكن يتوجب عليك ان تدفع ضريبة على نقل الاسماك من القرية إلى المدينة، ولا يمكنك اجتياز حدود المدينة الا بعد ان تدفع الضريبة.

اذ ذاك نظر ماركوفالدو بيأس نحو الرجل، وافرغ ما في سلته في النهر، ونظر إلى بعض الاسماك التي كانت ماتزال حية، وهي تتطافر إلى النهر بسعادة واضحة، وعاد من حيث اتى حاملاً خفي حنين.

Twitter: @ketab_n

الصيف

١٤ . القمر واللوحة المضيئة

عشرون ثانية تنقضي من الليل، وعشرون ثانية اخرى من لوحة الغناك ، فخلال عشرين ثانية تستطيع ان ترى السماء الزرقاء، التي تحجبها بعض الغيوم السوداء، والهلال الشمعي الذي يتهادى محاطاً بهالة من الضوء، والنجوم التي كلما تمعنت فيها، اصبحت اصغر، فاصغر، وتناثرت على درب التبانة. كل هذا يجب ان يرى بسرعة، لان كل هذه الامور ستختفي بعد مرور عشرين ثانية، ويعود (الغناك) للسيطرة على المشهد.

و (الغناك) جزء من اعلان مضاء بالنيون يدعى (سباكوغناك) على السطح المقابل تضيء لمدة عشرين ثانية، ثم تنطفيء عشرين ثانية اخرى، وحين تضاء، لا تستطيع ان ترى اي شيء آخر، حيث يختفي القمر فجأة، وتصبح السماء لوحاً اسود، وتفقد النجوم لمعانها وتبدأ القطط، ذكوراً واناثاً بمراودة بعضها البعض مطلقة مواء الحب بالقرب من المزاريب، اما نباتات السطوح التي تنمو داخل شقوق حجارة وطوب البناء، فتبدو عارية من قشورها، يكسوها ضوء النيون بهالة فوسفورية.

هناك، على السطح، كانت تعيش عائلة ماركوفالدو، حيث تغرق في

Twitter: @ketab_n

الليل باحلامها، تحت ضوء القمر، فترى (ايزولينا) التي اصبحت صبية يافعة، هائمة في عالم من الاحلام، تفتح قلبها للحب، وترخي اذنيها لصوت المذياع الضعيف الخافت، الآتي من اسفل الشارع المحاذي للعمارة. مطلقاً نغمات مقطوعات غرامية حالمة، وعلى ضوء (الغناك) وضربات موسيقى الجاز، تتخيل (ايزولينا) الراقصين في قاعة الرقص، ذات الاضواء المشعشعة، وترثي لحالها وهي تستلقي وحدها على السطح.

اما (بيتروشيو) و (ميشلينو) فقد كانا يحدقان باعينهما نحو بعضهما البعض ويتخيلان انفسهما محاطين بالغابات المليئة بقطاع الطرق، وحين يظهر ضوء (الغناك) يقفزان وهما يفرقعان بالابهام والشاهد والوسطى، ويهتفان:

ـ ارفع يديك، جاءك حارس الغابة!

اما الام (دوميتيلا)، فانها تطلق مع قدوم الليل العنان لتفكيرها، وتطلب من اطفالها الذهاب للفراش، لأن الهواء غير صحي وغير مناسب لهم، وتعتقد انه من الواجب على (ايزولينا) الا تنظر من النافذة في هذا الوقت من الليل، خاصة عند ظهور (الغناك) حيث تضيء تلك الاشارة كل شيء في الداخل والخارج، وتشعر (دوميتيلا) وكأنها تقوم بزيارة إلى بيت شخص مهم.

اما (فيورداليجي) الذي يعيش في الجهة المقابلة، وهو شاب سوداوي، فإنه يرى، كلما اضاءت حروف (الغناك) خلف انعطافة حرف ألـ G وجه فتاته الطفولي البريء، فما أن تبتسم له، ويحاول ان يبادلها الابتسامة حتى تضاء الحروف، فتتلاشى ملامح ذلك الوجه الذي يتحول إلى شبح ضعيف باهت، ولا يكون بمقدوره ان يعرف ان كان ذلك الفم الطفولي قد تجاوب مع ابتسامته ام لا.

ووسط كل هذه العواطف الجياشة، كان ماركوفالدو يحاول ان يعلم اطفاله مواقع النجوم:

ـ هناك الدب الاكبر: واحد، اثنان، ثلاثة، اربعة، وهناك الذيل، وهناك الدب الأصغر وهناك النجم القطبي الذي يشير إلى جهة الشمال.

ـ وذلك الشيء هناك، ماذا يعني؟

ـ انه حرف (سي)، وهذا ليس له علاقة بالنجوم، انه جزء من اعلان النيون (كوغناك) انه الحرف الاخير من الكلمة. والنجوم تشير إلى الاتجاهات

Twitter: @ketab_n

الرئيسية الاربعة الشمال والجنوب والشرق والغرب والقمر يشرق من الشرق، ويسير باتجاه الغرب، وحين يكون القمر شمعي اللون وضعيفاً، يكون مازال في جهة الشرق.

ـ وهل يدل حرف الـ (سي) في اعلان (الكوغناك) على جهة الشرق، حين يكون اللون شمعياً وضعيفاً؟

ـ ان ضعف اللون، او كونه شمعياً، لا يدل على الاتجاهات في (الكوغناك)، انها مجرد اعلان دعائي لشركة (سباك).

ـ أية شركة وضعت القمر هناك اذن؟

ـ لم تضع القمر اية شركة، إنه هناك دائمًا، وهو تابع للارض!

ـ اذا كان الأمر كذلك، وهو موجود هناك دائمًا فلماذا لا يغير هيئته وشكله؟

ـ انه مقسم إلى ارباع، وانت لا ترى سوى جزء منه.

ـ وانت ايضاً لا ترى سوى جزء من كلمة (كوغناك).

ـ هذا امر بسيط التفسير، لان سطح عمارة (بيربير ناردي) أعلى قليلاً.

ـ أعلى من القمر؟

كان الأمر يسير دائمًا على هذا المنوال، ففي كل مرة تظهر فيها كلمة (الغناك)، تختلط نجوم ماركوفالدو بالتجارة الدنيوية، وتتحول تنهيدة (ايزولينا) إلى غناء خافت (مامبو)، اذ يختفي فتى العلبة على السطح المقابل، ويصبح كالشبح الباهت، فيقطع عليها رد فعلها على القبلة التي قذف بها اليها (فيورداليجي) باطراف اصابعه، بعد ان استجمع شجاعته. اما (فيليبيتو) و (ميشلينو)، فيقفان واضعين قبضتهما امام وجهيهما، يوجهان الضربات لبعضهما البعض: تات، تات. تات، تات، ثم يتجهان نحو اللوحة الاعلانية المضاءة بالنيون، يريدان لكمها، ولكنها تختفي بعد عشرين ثانية.

قال فيليبيتو وهو يوجه قبضته نحو اللوحة الاعلانية:

ـ تات، تات، تات، ارأيت ياأبي، لقد اصبتها بضربة واحدة.

كان فيليبيتو مغرماً بالعاب الحرب، ولكن ما ان انطفأت اللوحة الاعلانية، واختفى الضوء، حتى شعر بالنعاس يداعب عينيه. ولكن والده قال له بغيظ:

Twitter: @ketab_n

ـ اذا استطعت ان تصيب تلك اللوحة، اذا استطعت ان تدمرها، فانني سأريك (ليو الاسد) مرتين.

هنا اشتعل ميشلينو نشاطاً وقال:

ـ (ليو الاسد)، يالها من فكرة، انتظر.

وتناول مقلاعه، ووضع فيه حجراً تناوله من جيوبه المعبأة دائمًا بالحصى الاحتياطي، واخذ يقذف الحجارة على كلمة (الغناك).

سمع الجميع صوت الحصى وهو يتدحرج على قرميد السطح المقابل، ويتناثر اثناء دحرجته على صفيح المزاريب، وصوت تحطم زجاج احدى النوافذ بعد اصابتها بحجر من حجارته، واخيراً صوت تساقط الحجارة على الشارع، حيث سمع الجميع صوتاً حانقاً يصيح:

ـ انها تمطر، انها تمطر حجارة، توقفوا، توقفوا عن قذف الحجارة ايها الاشرار.

ولم تمض لحظات على قذف الحجارة، حتى انطفأت اللوحة الاعلانية قبل اكمال ثوانيها العشرين، فأخذ كل فرد من افراد الاسرة الموجودين في غرفة السطح، بالعد ١، ٢، ٣، ١٦، ١٧، ١٩، وحين وصلوا إلى الرقم (١٩) توقفوا قليلاً قبل ان يلفظوا الرقم (٢٠) ثم اكملوا العد، ٢١، ٢٢، ٢٣، خوفاً من ان يكونوا قد اسرعوا في العد، ولكن حين وصلوا إلى الرقم (١٠٠٠) ولم تظهر الكلمة، ولم تضيء مرة اخرى، ايقنوا ان الاشارة قد اصيبت، وبدلاً من ظهورها، ظهر امامهم شبح اسود، من الصعب فك رموزه المتشابكة، مثل شجرة كرمة تتسلق معرشها. فصرخوا:

ـ هيه ـ هيه.

فرفع ماركوفالدو يده، محاولاً صفع (مشلينو)، ولكن يده توقفت في مكانها، حين رأى الفضاء يرتسم فوقهم، بسمائه الزرقاء ونجومها الابدية، فشعر كأنه طائر في هذا الفضاء الواسع بعد ان حجب هذا الظلام، الذي ساد السطح، عنهم كل المؤثرات الخارجية، حيث وقف كحاجز مجهول بينهم وبين العالم السفلي، المليء بالاشارات الهيروغليفية الصفراء، والخضراء والحمراء، التي تستمر في اداء عملها، واضواء اشارات المرور واضواء الترامات، والسيارات غير المرئية، التي تلقي اضواءها على رصيف الشارع، حيث كان

Twitter: @ketab_n

ذلك الضوء يصل اليهم فسفورياً باهتاً، غير واضح الملامح، كالدخان.

الآن فقط، تستطيع ان ترفع رأسك وتنظر إلى السماء، لانك لم تعد مصاباً بالعمى. الآن فقط تستطيع ان ترى السماء فضاء واسعاً، وترى النجوم التي تطرزها، والقبة السماوية، تتمدد في كل اتجاه وتحتوي كل شيء.

فضاء واسع لا حدود له، يحيط بالارض من كل اتجاه، وكوكب الزهرة يشرخ ذلك الفضاء المفتوح بضوئه الحاد، الذي يتوهج من نقطة معينة، اما القمر الجديد، المعلق في السماء، فقد اخذ يظهر بشكل افضل، وبدأت تضاريسه التي لم تكن ظاهرة تتفتح شيئاً فشيئاً.

كان ماركوفالدو يشعر بالحنين للماضي، وكان وهو ينظر إلى ذلك الجزء المظلل من القمر، يتمنى لو يستطيع الوصول إلى الشاطىء، من اجل ان يمتع نفسه بليلة صيفية صافية ومشرقة.

ظل ماركوفالدو، وافراد عائلته مسمرين على نافذة غرفتهم التي على السطح، كان الاطفال خائفين من العواقب غير المعروفة نتيجة لعملهم، وكانت (ايزولينا) غارقة في احلامها التي ملأتها بالنشوة، وكان (فيورداليجي) هو الشخص الوحيد الذي استطاع ان يرى تفاصيل تلك الغرفة الواقعة على السطح المقابل، ويرى من خلال تلك الاضاءة الخافتة، ابتسامة فتاته القمرية.

وحين استعادت (دوميتيلا) رباطة جأشها، وصرخت على الاولاد:

ـ هيا، هيا إلى النوم، لقد اصبحنا في ساعة متأخرة من الليل، هيا، هيا ابتعدوا عن النافذة قبل ان تصابوا باذى، تحت ضوء القمر.

رفع مشلينو مقلاعه، وصوبه نحو السماء وقال:

ـ لن انام قبل ان اطفىء لكم القمر!!

ولكنهم امسكوه، ووضعوه في الفراش.

ظلت لوحة الاعلان المضاءة بالنيون، طوال تلك الليلة، والليلة التي تلتها مطفأة، ولم يظهر منها سوى كلمة (سباك كو) ومن غرفة ماركوفالدو على السطح، اصبح بامكانهم رؤية قبة السماء، واصبح بامكان (فيورداليجي) وفتاته القمرية تبادل القبلات الطائرة، واصبح بامكانهما التخاطب عن طريق الاشارة وتحديد موعد اللقاء.

Twitter: @ketab_n

ولكن في صباح اليوم التالي، وعلى احدى الدعامات التي تحمل تلك اللوحة الاعلانية، ظهر شبح رجلين يرتديان ملابس العمل وهما يتفحصان الاسلاك والانابيب، وحين اطل ماركوفالدو من النافذة ليرى ان كان الطقس قد تغير ام لا، رأى الرجلين، فقال لاسرته:

ـ الليلة ستعود كلمة (الغناك) للاضاءة مرة اخرى.

وفي نفس الوقت، طرق باب الغرفة، ففتحوا الباب، ليروا رجلاً تبدو عليه امارات الهيبة والاحترام، يضع نظارة طبية على عينيه، يقول لهم:

ـ استميحكم العذر، هل استطيع ان انظر من نافذتكم؟

بعد ان قام بتقديم نفسه على انه السيد (جوديفريدو) مندوب شركة لوحات الاعلان المضاءة بالنيون.

في تلك اللحظة، تناسى ماركوفالدو، مغامراته الفلكية، واخذ يفكر:

لقد دمرنا، سوف يطلبون منا دفع الخسائر التي لحقت باللوحة، وسيعرف بمجرد النظر من النافذة، ان الحجارة لا يمكن ان تأتي من اي مكان آخر سوى هذه النافذة.

ولكنه ابعد تلك الافكار عن مخيلته، وحاول استباق الامر قائلاً للرجل:

ـ سيدي انت تعلم شقاوة الاطفال، وتعرف كيف يتصرفون حين يحالون اصطياد الزرازير، الحصى والمقاليع. انا لا اعلم كيف انطفأت تلك اللوحة التي تحمل كلمة (سباك) ومع ذلك قمت بمعاقبة الاطفال بشدة. نعم لقد عاقبتهم بشدة، وانا اعدك ان هذا الأمر لن يتكرر مرة اخرى.

هنا ظهر الاهتمام على وجه السيد (جوديفر يدو) وقال:

ـ في الحقيقة انا أعمل في شركة (توماهوك، للكونياك) وليس في شركة (سباك) وقد اتيت هنا، لأدرس امكانية وضع لوحة اعلانية على هذا السطح، ولكن يمكنك الاستمرار في حديثك، فانا مهتم بما تقوله.

وحين استمع المندوب لكلام ماركوفالدو، تم عقد صفقة بين ماركوفالدو وشركة (توماهوك)، وهي شركة كونياك رئيسية منافسة لشركة سباك، وقد نص الاتفاق على ان يقوم اطفال ماركوفالدو بقذف الحصى، بواسطة مقاليعهم المطاطية، على كلمة (غناك) في كل مرة تضيء فيها تلك اللوحة.

وقال السيد (جوديفريدو):

Twitter: @ketab_n

ـ سيكون هذا العمل، هو القشة التي ستقصم ظهر البعير.

وقـد كان يعني ما يقول، فقد كانت شركة (سباك) على حافة الانهيار بسبب الموازنة الكبيرة التي تنفقها على الاعلانات، وقد اعتبرت شركة (سباك) ان العـطل الدائم في اجمل لوحاتها نذير شؤم، اذ ان هذه اللوحة، وبفضل الجهد الكبير الذي كانت تبذله عائلة ماركوفالدو، لم تكن تصلح ابداً، فمرة تظهر عليها كلمة (كوغاك)، ومرة كلمة (كوناك)، ومرة اخرى كلمة (كونك) مما كان يفتـح المجـال للاشاعات لتسري بين الدائنين، الذين اصبح لديهم انطباع اكيد بان الشركة تواجه مصاعب مالية، ومشاكل كثيرة، خاصة في الفترة الاخيرة، حين بدأت وكالة الدعاية تمتنع عن القيام بعمليات الصيانة والاصلاح، حتى يتم دفع الفواتير المتراكمة على الشركة، مما اثار الهلع في نفوس الدائنين، وأدى بشركة (سباك) إلى الافلاس.

امـا سماء ماركوفالدو، فقد غرقت في نور القمر الدائري، الذي كان يتألق بكل بهائه.

وفي الربع الاخير من ذلك العام، عاد الكهربائيون مرة اخرى، للعمل على السطح المواجه لبيتهم تماماً، وكانت تلك اللوحة المضاءة بالنيون لشركة (توماهوك كونياك)، لذلك فقد عاد القمر للغياب، مرة اخرى، وظهرت بدلاً منه احرف من نار اكبر مرتين ونصف من حروف لوحة شركة سباك، تضيء وتنطفىء كل ثانيتين، تحمل كلمة (توماهوك كونياك) فلم يعد للقمر وجود، واختفت القبة السماوية بكل تفاصيل وجزئيات ليلها. وكان اكثر المتضررين من جراء ذلك هو (فيورداليجي)، حيث اختفت فتاته القمرية، في غرفتها البعيدة عن السطح، خلف حرف الـ (واو) الضخم، الذي لا تستطيع عين الانسان اختراقه ابداً.

Twitter: @ketab_n

الخريف

١٥ . المطر واوراق النبات

كان من بين مهام ماركوفالدو ومسؤولياته العديدة، في مقر عمله في الشركة، ان يقوم بري النباتات الموضوعة في الاصص في مدخل القاعة، وقد كانت من تلك النباتات التي تنمو في البيوت البلاستيكية، وتنتصب على ساق رفيعة ينمو على جوانبها ورق لامع، عريض، وطويل. بكلمات اخرى كانت تلك النباتات تبدو وكأنها غير طبيعية، ولكنها رغم ذلك كانت نباتاً ولذا كانت تعاني من الاختناق، في مكانها بين الستائر، وخزانة المظلات الواقية من المطر، وتفتقد الهواء النقي، والضوء، والندى.

وفي كل صباح، كان ماركوفالدو يكتشف بعض الآثار السيئة المزعجة، كانحناء الساق الذي اصبح غير قادر على حمل الورقة، او وجود بعض النقط على ورقة ظهرت كخد طفل مصاب بالحصبة، واستحالة رأس ورقة ثالثة إلى اللون الاصفر، او سقوط بعض الاوراق على الارض، هنا وهناك. وكان الساق كلما طال وكبر، فقد القدرة على حمل الاوراق التي تتوزع بانتظام في قمته، كما تتوزع اوراق النخيل على رأس النخلة.

وكان ماركوفالدو يقوم بازالة الاوراق المتساقطة، ومسح الغبار عن الاوراق السليمة المتبقية، ثم يقوم بصب الماء على قاعدة النبتة، ببطء حتى لا يمتليء الاصيص فيطفح الماء الزائد، ويتسخ البلاط، لذلك كان يقوم بريها

Twitter: @ketab_n

بواسطة تنكة نصف ممتلئة وسرعان ما تمتص تربة الاصص الماء.

كان هذا العمل البسيط، يستولي على جل اهتمام وتركيز ماركوفالدو، فقد كان يعطيه من العناية والجهد، مالا يعطيه لأي عمل، او أية مهمة اخرى. وكان حنانه وعطفه على هذه النباتات، اكبر من الحنان والعطف اللذين يشعر بهما تجاه احد اقاربه حين يجده متورطاً في مشكلة او قضية. وكان حين يطلق تنهيدة من تنهيداته، لا يدري فيما اذا كانت هذه التنهيدة على نفسه ام على النبتة التي امامه، فقد كان يدرك ان هذه النباتات تشاركه نفس سوء الطالع، بوجودها داخل جدران هذه الشركة.

أصبحت النبتة (وكان هذا هو الاسم الذي يطلق عليها، اذ لا ضرورة لاطلاق اسم آخر اكثر تخصيصاً، فهي بهذا الوضع تمثل مملكة النبات) جزءاً لا يتجزأ من حياة ماركوفالدو وسيطرت سيطرة كاملة على تفكيره طيلة ساعات الليل والنهار. وعندما كان ينظر إلى الغيوم المتجمعة في السماء، لم يكن ينظر اليها، كما ينظر اليها الآخرون من سكان المدن الذين كانوا يفكرون بارتداء المعاطف الواقية من المطر، بل كان ينظر اليها بعيون مزارع يتوقع بين فترة واخرى انتهاء موسم الجفاف، وفي اللحظة التي يسمع فيها قطرات المطر تسقط بقوة، كان يرفع رأسه، ويطل من نافذة مقره في المصنع، ثم يهرع فوراً، تاركاً كل شيء، نحو النبتة، فيحمل الاصيص بين ذراعيه، ليضعه في الساحة الخارجية.

وكان ماركوفالدو، يتفاعل مع النبتة ويشعر بمقدار سعادتها وهي تتحسس الماء المنسكب بين اوراقها، وتتنفس الهواء الطبيعي، وتعرض اكبر مساحة من سطحها لقطرات الماء، وتبدو اكثر خضرة. هذا الاحساس الغريب الذي كان يخامره، كان يجعله يقف فترة طويلة تحت المطر، يراقب النبتة ناسياً نفسه، وغافلاً عن حماية جسده من البرد والمطر.

كانا هناك رجلٌ ونبتة، يقفان وجهاً لوجه، وسط الساحة، يتبادلان نفس الشعور، تحت قطرات المطر. نبتة لم تكن معتادة على الهواء الطلق، ومظاهر الطبيعة الحقيقية، تنظر باستغراب نحو رجل وجد نفسه مبللاً من قمة رأسه حتى اخمص قدميه، وملابسه غارقة بالماء، رجل يشمخ بانفه يستنشق رائحة المطر، هذه الرائحة التي تشكل بديلاً لرائحة الغابات والحقول البعيدة، والتي

Twitter: @ketab_n

تستعيد في ذاكرته بعض الذكريات الغامضة، التي تتقاطع فجأة مع ذكرياته عن آلام الروماتيزم التي يعاني منها كل عام، فيقفز كالملدوغ للداخل محتمياً من قطرات المطر.

وبعد انتهاء ساعات العمل، حيث يتوجب اغلاق المكان، كان ماركوفالدو يقوم إلى رئيسه في العمل، ليسأله اذا كان يستطيع ان يترك تلك النباتات في الساحة الخارجية ام لا، فيصيح به السنيور (فيليجيلمو) الذي يتحاشى اتخاذ القرارات ويتهرب من المسؤوليات:

ـ هل انت مجنون، ماذا لو قام احدهم بسرقتها، ترى من الذي يتحمل مسؤولية ذلك.

ولكن ماركوفالدو الذي كان يدرك اهمية المطر للنبتة، لم يطاوعه قلبه، ولم يستطيع اجبار نفسه على ارجاع النبتة للداخل، لأن هذا يعني حرمانها من نعمة السماء. لذلك كان يقول لرئيسه:

ـ هل يمكنني الاحتفاظ بها حتى صباح الغد، استطيع ان احملها في صندوق دراجتي الناربة، ونقلها إلى البيت، وبهذه الطريقة تستطيع الحصول على اكبر قدر ممكن من مياه الامطار.

فكر السنوير فيلجيلمو لحظة قبل ان يعطي موافقته وقال:

ـ لا مانع لدي، لكنك تتحمل مسؤوليتها كاملة.

تحت زخات المطر، قطع ماركوفالدو طرقات المدينة، منحنياً على مقبضي دراجته، محتمياً وراء الحاجز الزجاجي، المقاوم للهواء والمطر، وخلفه الصندوق الذي ثبت فيه اصيص النبتة، فغدا الرجل والدراجة والنبتة، كلاً واحداً متكاملاً. وللحقيقة فان الرجل المنحني على دراجته، لم يكن ظاهراً ابداً، وكان كل ما هو ظاهر من ذلك المنظر، تلك الدراجة التي تقطع الطرقات بسرعة، والنبتة المثبتة خلفها. ومن خلف الحاجز الزجاجي، كان ماركوفالدو يسترق بعض النظرات ليرى الاوراق الخضراء التي تقطر ماءً تتمايل خلفه، وفي كل مرة ينظر فيها، كان يخيل اليه بأن النبتة قد اصبحت اكثر طولاً، واكثر اخضراراً.

وحين وصل إلى البيت، وحمل الاصيص بين يديه، تجمع الاطفال حوله، واخذوا يرقصون ويصيحون، وهم يضربون أرضية البيت باقدامهم

Twitter: @ketab_n

الصغيرة:

ـ شجرة عيد الميلاد! شجرة عيد الميلاد!

فرد عليهم ماركافالدو محتجاً:

ـ لا، لا، لا، ماهذا الذي تهذون به، ان عيد الميلاد مازال بعيداً جداً، انتبهوا، اياكم ان تلمسوا هذه الاوراق، انها حساسة جداً.

فردت عليه دوميتيلا بتذمر:

ـ لماذا احضرت هذه النبتة إلى البيت، وانت تعرف اننا نعيش فيه كالسردين، ام انه يتوجب علينا مغادرة البيت من اجل نبتتك.

ـ انها نبتة فقط، ويمكننا ان نضعها على شرفة النافذة...

كانت الظلال التي تلقيها النبتة، الموضوعة على الشرفة، واضحة داخل الغرفة، وقد انشغل ماركوفالدو بالنبتة كثيراً، لدرجة انه كان ينظر اليها وهو يتناول عشاءه، اكثر مما ينظر إلى صحنه، ولا يتناول لقمة واحدة قبل ان يتأكد انها موجودة خلف زجاج النافذة.

وكانت عائلة ماركوفالدو، قد انتقلت من مكان سكناها الاول في الغرفة التي كانت تشبه القبو، فتحسن مستوى معيشتها تحسناً ملحوظاً، بعد ان انتقلت لتعيش على الغرفة الموجودة على السطح. ومع ان لهذه الغرفة حسناتها، الا انه كان لها عيوبها ايضاً: مثل الماء الذي كان يرشح من سقف الغرفة، في اكثر من منطقة، وفي فترات منتظمة مما حدا بماركوفالدو ان يضع الاواني وقدور الطبخ في تلك الاماكن، كذلك فقد كان صوت تساقط قطرات المطر في تلك الاواني والقدور، (تِك، تِك، تِك. تِك) يزعج آذان العائلة، ويجعل ماركوفالدو يشعر بقشعريرة كبيرة وكأنها نوبة من نوبات الروماتيزم. الا ان الآية انقلبت في تلك الليلة، فقد كان كلما استيقظ من نومه القلق، يرخي اذنيه لموسيقى (تِك، تِك، تِك، تِك) التي تعزفها قطرات المطر، وكأنها موسيقى مرحة، فهي تعبير عن سقوط ذلك المطر الخفيف، الذي يغذي النبتة، ويدفع الطعام داخل شرايينها الرفيعة، ناشراً اوراقها مثل الاشرعة، وكان يحدث نفسه قائلاً:

ـ غداً حين انظر اليها سأجدها قد كبرت.

ومع انه كان متأكداً من الأمر، الا انه حين رأى اوراق تلك النبتة،

Twitter: @ketab_n

صباح ذلك اليوم، وهي منتصبة كالسيف، بعد ان كانت سيقانها منحنية غير قادرة على حمل اوراقها، شعر بسعادة كبيرة، ونزل درجات السلم ركضاً وهو يمسك بالاصيص، متجهاً إلى صندوق الدراجة، ومنطلقاً بنفس الحيوية إلى عمله.

كان المطر قد توقف، ولكن الطقس لم يكن مستقراً، فلم يكد ماركوفالدو، يغادر دراجته، حتى تساقطت بعض قطرات المطر مرة أخرى.

وفي المستودع، حيث كان يعمل ماركوفالدو، كان ماركوفالدو، لا يستقر على حال، فهو دائم الحركة، حيث يذهب بين لحظة واخرى ليسترق النظر إلى الساحة الرئيسية حيث وضع النبتة، وقد جعله هذا الوضع لا يركز على عمله، مما حدا برئيس العمال لأن يسأله بانزعاج:

ـ ماذا حدث لك هذا الصباح، لماذا انت دائم النظر من النافذة.

فاجاب ماركوفالدو مشيراً إلى مكان النبتة بصوت منخفض، لكي لا تنزعج النبتة:

ـ انها تنمو، تعال وتأكد بنفسك، انظر ياسنيور فيليجلمو، انها تنمو، لقد كبرت، كبرت، أليس كذلك؟

فاجاب فيليجيلمو موافقاً:

ـ نعم لقد كبرت.

كانت تلك الموافقة، في تلك اللحظة، أعظم تكريم يلقاه ماركوفالدو، مما جعله يشعر بالرضى والثقة بالنفس. كان ذلك اليوم، هو يوم السبت، وهو بداية عطلة نهاية الاسبوع، ولن يعود ماركوفالدو إلى العمل الا صباح يوم الاثنين، وكانت رغبة ماركوفالدو، ان يقوم باخذ النبتة معه للبيت مرة اخرى، ولكن لأن السماء لم تستمر في مطرها، فلم يكن لديه اي عذر لطلب ذلك، صحيح ان السماء كانت مغطاة بالسحب السوداء، والجو يشير إلى عدم الاستقرار، لكن كيف يمكنه طلب ذلك والدنيا لا تمطر.

ولما كان السيد فيليجلمو، من هواة الرصد الجوي، حيث كان يمارس هوايته تلك في مكتبه، حيث يحتفظ بميزان للحرارة، فقد سأله:

ـ ماذا تقول النشرة الجوية اليوم ياسنيور فيليجلمو؟

ـ الجو سيء، ومايزال غير مستقر، صحيح انها لا تمطر هنا، ولكنها تمطر

Twitter: @ketab_n

في الحي الذي اسكن فيه، لقد هاتفت زوجتي قبل قليل واخبرتني بذلك.

هذه العبارات افرحت ماركوفالدو، وجعلته يقترح على فيليجلمو ان يأخذ النبتة معه، في رحلة قصيرة وسريعة إلى حيث المطر، ولم يكد السيد فيليجلمو يقبل اقتراحه، حتى هب من فوره، ووضع النبتة في صندوق دراجته النارية. قضى ماركوفالدو مساء السبت ويوم الاحد وهو يتمعن في السماء، ويدرس امكانية ايجاد سحابة ماطرة في مكان ما، ثم ينطلق يسابق الريح، يقطع الشوارع، باتجاه السحب الماطرة. وكان بين الحين والآخر، يسترق النظر إلى النبتة التي اصبحت اطول واعرض، حيث كان يشعر انها قد اصبحت اعلى من سيارات الاجرة، ومن الشاحنات، واوراقها اكثر عرضاً وطولاً وخضرة، حيث كان المطر يتساقط على حاجز الدراجة الزجاجي، ثم يتناثر كماء الدوش على اوراق النبتة.

لقد اصبحت هذه النبتة التي تسير على عجلتين، من الامور المحيرة لرجال الدرك، والسواقين والمشاة، وحتى السحب التي تسير مع الريح، وتغدق على المناطق المجاورة، ثم تهجرها إلى احياء اخرى. وفي جميع الشوارع والجادات، كان ماركوفالدو يتسابق مع سحابته، منحنياً على مقبضي دراجته، منزوياً خلف الحاجز الزجاجي بحيث لا يظهر منه سوى انفه، وكانت دراجته الصغيرة تنطلق باقصى سرعة، حيث يريد ان تبقى النبتة دائمًا في مسار قطرات المطر، حيث ينطلق المطر، والريح، والسحاب، والنبتة، والعجلات وماركوفالدو في نفس الاتجاه.

وفي صباح يوم الاثنين عاد ماركوفالدو للعمل، بيدين خاليتين، فسأله رئيس العمال السيد فيليجلمو على الفور:

ـ أين النبتة؟

اجاب ماركوفالدو:

ـ انها هناك في الخارج تعال وانظر.

قال رئيس العمال:

ـ انني لا أراها اين هي؟

قال ماركوفالدو:

ـ انها هناك، تلك الشجرة الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

وأشار إلى شجرة كبيرة، يصل ارتفاعها إلى الطابق الثالث، لم يستطع الاصيص القديم ان يحتويها، فاستبدله بوعاء يشبه البرميل.

اذ ذاك، لم يكن بمقدور ماركوفالدو استعمال دراجته لنقل النبتة، وتوجب عليه استعارة شاحنة صغيرة لنقلها، ولكن رئيسه صاح به غاضباً:

ـ ما هذا، كيف استطيع ادخال هذه الشجرة إلى مدخل القاعة، انها لا تدخل من الباب؟

فهز ماركوفالدو كتفيه بعدم اهتمام، واضاف فيليجلمو:

ـ الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله، هو ارجاعها إلى المستنبت، واستبدالها بنبتة أخرى صغيرة الحجم.

وضع ماركوفالدو الشجرة، في صندوق دراجته النارية، وتسلق دراجته وقال:

ـ سأذهب أنا لاستبدالها.

وعاد للانطلاق في شوارع المدينة مرة اخرى، وقد نشرت هذه الشجرة الخضرة في الشارع، مما اقلق رجال المرور على حركة السير، التي توقفت عند كل تقاطع، حيث كانوا يوقفونه، ولا يطلقونه الا بعد ان يشرح لهم الاسباب التي دعته لنقل هذه النبتة، وكيف انه ذاهب لاستبدالها بنبتة اخرى من المستنبت. كان عليه ان يختار الشارع الذي سيذهب اليه لتجنب مضايقات رجال المرور، واختناقات الشوارع. لذلك استمر بالدوران في الشوارع، حتى وجد نفسه اخيراً في مواجهة الشارع المؤدي إلى المستنبت، فلم يطاوعه قلبه ان يقدم ما صنعته يداه لغيره، لقد عرف نجاحاً هائلاً في استنبات هذه النبتة، نجاحاً لم يعرفه طوال حياته، وهذا النجاح جعله يشعر بالرضى والسرور، لذلك، عبر الشارع سريعاً، غير ملتفت للمستنبت وانطلق في الشوارع الاخرى، يسابق السيارات، ويقطع الساحات والملاجىء، والجسور والتقاطعات.

كانت الاغصان الكثيفة كغابة استوائية تنتشر حتى غطت رأسه وظهره ويديه، واختفى هو نفسه خلف تلك الاوراق والاغصان والجذوع، وكانت الدراجة تنطلق بهم جميعاً، مهتزة تحت المطر، الذي كان قد توقف تماماً، دون ان يشعر به ماركوفالدو الذي يختفي تحت تلك النبتة.

Twitter: @ketab_n

اما النبتة التي كانت قد ارهقت من نموها المستمر، ومن الجهد الشاق الذي بذلته، في سباقها المحموم تحت المطر، فقد اخذت اوراقها تتحول واحدة بعد الاخرى إلى اوراق صفراء ذهبية، دون ان يلاحظ ماركوفالدو ذلك التغيير فقد كان مستمراً في سباقه مع الغيوم الماطرة.

وخلال مروره في الشوارع تجمعت حوله مظاهرة من الدرجات النارية، والسيارات، والعجلات، والاطفال الصغار، الذين كانوا يلاحقون الشجرة التي تسير في الشوارع، دون ان يشعر بهم ماركوفالدو ويصيحون (بأأوباب)[1]! ويطلقون صرخات الاعجاب، (اوو. . . اوو. . .ه)، مستعجلين سقوط الاوراق الصفراء، وما ان تسقط الورقة وتطير، حتى تحلق الايدي، وترتفع تريد التقاطها، ومع هبات الرياح، كانت الاوراق الصفراء تتطاير في الهواء بشكل لولبي.

كان ماركوفالدو مايزال يعتقد ان الشجرة الكثيفة الخضراء، ماتزال خلفه. لكنه فوجيء، حين شعر بزوال شيء ما من فوق رأسه، وفوجيء اكثر حين اكتشف انه اصبح غير محمي، فنظر خلفه، ليرى ان الشجرة قد اختفت ولم يتبق منها غير جذع هزيل، ممتد، وأغصان عارية، بصورة وحشية، ولم يبق سوى ورقة صفراء واحدة في قمة الشجرة.

وعلى ضوء قوس قزح، لم يكن هناك مجال لرؤية أي لون سوى اللون الاسود. لقداصبح الناس، وواجهات المنازل، خلفية لهذا المنظر، وسط هذا السواد، الذي يعانق السماء، أما المنظر فقد كان منظر اوراق ذهبية. كانت تتطاير لامعة، ومئات الايدي الخضراء والوردية ترتفع خلال الظلام للامساك بها، والريح تقود تلك الاوراق الذهبية باتجاه قوس قزح.

وعند نهاية الشارع، ووسط كل ذلك الصراخ، والايدي المرتفعة، توقف ماركوفالدو، ليرى آخر ورقة على شجرته، وهي تتحول إلى اللون الاصفر، فالبرتقالي، ثم إلى الاحمر، فالبنفسجي، ثم إلى الازرق، فالاخضر، ثم إلى الاصفر، ثم تختفي.

---

(١) baobab: شجر استوائي عريض الجذع. (المورد).

Twitter: @ketab_n

الشتاء

١٦ . ماركوفالدو في السوبرماركت

في السادسة من مساء كل يوم تسقط المدينة في ايدي المستهلكين. طوال النهار تقوم أغلبية الناس بانتاج بضائع الاستهلاك، ولكن وفي ساعة معينة يلقون مفاتيحهم ويتوقفون عن الانتاج متحولين من منتجين إلى مستهلكين.

ففي مثل هذه الساعة من مساء كل يوم، تتفجر حمى اندفاعة رهيبة، حيث توضع الازهار التي لم تكن تزهر داخل الواجهات المضيئة في المحلات، وتعد البسطرمة الحمراء للتعليق، وتصنع ابراج عظيمة من صحون البورسلين، تصل إلى حافة السقف، وتفك لفائف الاقمشة، كذيل طاووس طويل، وتندفع الكتل البشرية، تفك، وتأكل، وتمسك وتخرب. وترى الطوابير تقف في صفوف طويلة على الارصفة وتحت الاقواس، وترى طوابير اخرى من خلال الابواب الزجاجية للمحلات التجارية، تقف امام طاولات المحاسبة، يتقدمون ببطء إلى الامام، ذراع كل واحد منهم، تضرب القفص الصدري للشخص الذي يليه، ويتحركون مثل دفات محرك ثابت، حيث يتبدى الاستهلاك في طريقة لمسهم للبضاعة، او اعادتها، ثم اخذها مرة اخرى، او انتزاعها من ايدي الاخرين، ويتبدى ايضاً في البائعات الشاحبات الوجوه اللواتي يجبرن على عرض البضاعة على الناس. وتزداد حمى الاستهلاك، حين تبدأ بكرات الخيوط الملونة تتدحرج، ولفائف الاوراق الملونة ترفرف باجنحتها

Twitter: @ketab_n

من اجل توضيب المشتريات، ووضعها في رزم صغيرة، ووضع هذه الرزم في حقائب اكبر، كل واحدة منها مربوطة برباط يشبه الفراشة، حيث تطير كل هذه الرزم والحقائب، لتوضع حول مكتب المحاسب، الذي يعاني من الازدحام الشديد، حيث يقف المزدحمون واضعين ايديهم في جيوبهم او محافظهم، باحثين عن النقود والاوراق المالية، او القطع المعدنية، حيث الاصابع تعد النقود، او تبحث داخل المحافظ عن العملة. وكثيراً ما ترى، بين غابة سيقان الواقفين، واطراف المعاطف اطفالاً يحاولون الامساك بايدي ذويهم، ولكن الايدي تكون مشغولة بعد النقود، فيشعرون بالضياع، ويشرعون في البكاء.

في إحدى تلك الامسيات، اخذ ماركوفالدو عائلته للنزهة، ولما كانوا لا يملكون أية نقود لانفاقها، فقد اكتفوا بممارسة تسليتهم الوحيدة، الا وهي مراقبة الاخرين اثناء تبضعهم، لانه كان هناك اعتقاد، بانه كلما ازداد دوران رأس المال، كلما ازداد أمل الذين لا يملكون، في الحصول على جزء منه، وانه سيدخل جيوبهم إن عاجلاً، أم آجلاً. وذلك على العكس من الاجور، التي كان يتقاضاها ماركوفالدو، والتي كانت شحيحة جداً، بحيث لم تكن تكفي كمورد لعائلة كبيرة، ولم تكن تكفي، لسداد الدفعات، والديون، والاقساط المستحقة الدفع، إذ سرعان ما تطير هذه الاجور، بمجرد استلامها. ولكن على اية حال، تبقى عملية المراقبة هذه عملاً جميلاً جداً وممتعاً خاصة حين تذهب إلى السوبرماركت الذي يتبع النظام اخدم نفسك بنفسك، حيث تجد في مقدمة الاشياء، عند البوابة الرئيسية، العربات المعدنية التي تسير على عجلات مطاطية، والتي يتوجب على كل مشتر ان يدفع عربة امامه ليملأها بكل انواع البضائع.

ولدى دخول ماركوفالدو وافراد عائلته إلى السوبرماركت، اخذ ماركوفالدو احدى هذه العربات، ودفعها امامه، واخذت زوجته عربة اخرى، وتبعهم اطفالهم الاربعة، يقود كل واحد منهم عربته، وساروا جميعهم خلف عرباتهم، وسط تلال من الاشياء الجميلة، يتقدمهم ماركوفالدو، وكأنهم في مظاهرة. كانت كل الاشياء صالحة للاكل، ومثيرة ولذيذة، وكان كل صنف منها يشير للصنف الأخر، البسطرمة، والجبنة وغيرها، وكان الاطفال يلفظون اسماء تلك الاشياء، وكأنهم يتعرفون على وجوه اصدقاء ومعارف، يقابلونهم

Twitter: @ketab_n

للمرة الاولى وسط الطريق. وكانوا يسألون:

ـ أبي، أبي، هل من الممكن ان آخذ هذا الشيء على الاقل!

ـ لا، ارفعوا ايديكم، لا تلمسوه.

كان هذا هو جواب ماركوفالدو الذي لا يتغير، فقد كان يدرك ان الفتاة ستكون بانتظارهم في نهاية المشوار، عند بوابة الخروج لكي تحصل منهم ثمن الاشياء التي سيأخذونها.

ولكن الاطفال كانوا يعيدون السؤال بتصميم.

ـ لماذا اذن تأخذ تلك السيدة واحدة من تلك العلب!

ولم تكن سيدة واحدة، بل حشداً من السيدات، آتيات لشراء القليل من الجزر وبعض الحبوب، ولكنهن لم يستطعن مقاومة أهرامات العلب، فتقدمن بحركات قسرية ودون تفكير، وارسلن ايديهن إلى علب البندورة والدراق والبلم[1] ثم ليلقين بها في عرباتهن، ومعنى ذلك انه اذا كانت عربتك فارغة، بعكس عربات الآخرين المليئة، فانك ستتماسك لبعض الوقت، وبعد ذلك يسيطر عليك نوع من الحسد والغيرة، وشيء من وجع القلب المكسور، لدرجة انك لا تستطيع احتمال الموقف اكثر، فتبدأ بملء عربتك بهذه الاشياء لذلك اخبر ماركوفالدو زوجته واطفاله، بان عليهم الا يلمسوا اي شيء، وشدد على ذلك، ثم انطلق مسرعاً من خلال احدى التقاطعات هرباً من نظرات عائلته.

حين وجد ماركوفالدو نفسه وحيداً، في ذلك المكان، تناول صندوقاً من البلح، عن احد الرفوف ووضعه في عربته، وكان يرغب ان يمارس متعته في الشراء، ولو لمدة عشر دقائق فقط، وذلك بان يقوم بعرض مشترياته مثل اي متسوق آخر في المحل، ثم يقوم بعد ذلك باعادة الاشياء إلى مكانها، فيتناول صندوقاً، وزجاجة صلصة الطماطم، وعلبة قهوة، وعلبة سباغيتي زرقاء. كان ماركوفالدو متأكداً من قدرته على ضبط نفسه، لمدة تزيد على ربع الساعة، دون ان يصرف قرشاً واحداً، ولكنه خلال هذه الفترة، يستطيع ان يتمتع بالتبضع واختيار البضاعة التي يشتهيها، ولكن على شرط، الا يراه اطفاله يفعل ذلك،

---

(١) anchovy : سمك صغير يشبه الرنكة. (المورد).

Twitter: @ketab_n

لانهم اذا رأوه، فانهم سيسارعون إلى تقليده، وهنا تحدث الطامة الكبرى، والفوضى التي لا يعرف مداها أحد الا الله.

على اي حال، صمم ماركوفالدو ان ينفذ رغبته تلك، فأخذ يسير في خط متعرج حتى يختفي عن الاولاد، وقام بتتبع الخادمات او السيدات الثريات المشغولات بانتقاء البضاعة، وحين تمتد يد احداهن لاختيار شراب اصفر ذي رائحة زكية، او صندوق من جبنة المثلثات، كان ماركوفالدو يقوم بتقليدهن، وكانت الموسيقى الخفيفة الناعمة التي تبثها السماعات الخفية، تسهل حركة المستهلكين، الذين يسيرون او يتوقفون متابعين اللحن، وفي اللحظة المناسبة يمدون ايديهم لالتقاط اي شيء، ثم يقومون بوضعه في عرباتهم. كل هذا كان يتم تحت تأثير الموسيقى.

امتلأت عربة ماركوفالدو بالبضائع، واخذت خطواته تقوده لاقسام ليست مطروقة بكثرة، حيث البضائع المرصوصة عليها، تحمل اسماء لا يعرفها، ومغلفة في صناديق عليها بعض الصور، ولم يكن ماركوفالدو متأكداً من محتويات تلك الصناديق، أهي صناديق اسمدة، او بذور خس، او سموم، او ديدان خس، او طعام لجذب الطيور التي تأكل تلك الديدان، او سلطة خس، او سلطة الطيور المنزلية. ولكن ماركوفالدو لم يفكر بالأمر كثيراً، بل مد يده، واخذ صندوقين او ثلاثة منها.

وبينما كان يسير بعربته بين رفين عاليين، انتهى به الممر إلى مساحة مهجورة وخالية، وتحت اضواء النيون التي تنعكس على ارضية الساحة اللامعة ، وقف ماركوفالدو مع عربته المملوءة بالبضاعة مذهولاً، فقد وجد نفسه في نهاية الطريق، امام بوابة الخروج وصندوق المحاسبة، ولاول وهلة فكر بطأطأة رأسه، ودفع عربته التي تشبه الدبابة امامه بقوة والهرب مع غنيمته خارج السوبرماركت، قبل ان تتمكن الفتاة المسؤولة من الضغط على زر الانذار.

وبينما هو واقف في نهاية الممر مفكراً بالهرب، ظهرت عربة اخرى مثقلة أكثر من عربته بالبضائع تقودها زوجته (دوميتيلا)، ومن مكان آخر، ظهرت عربة اخرى يقودها (فليبيتو) ويدفعها بكل ما لديه من قوة، وكانت تطل على هذه الفسحة، ممرات اخرى، ظهر منها ابناء ماركوفالدو واحداً بعد الآخر، يدفعون عرباتهم المعبأة كالشاحنات، حيث اتضح انهم جميعاً كانوا يحملون

Twitter: @ketab_n

الفكرة نفسها.

حين تجمعوا، عرفوا انهم قد جمعوا في عرباتهم نماذج كاملة من كل محتويات السوبرماركت، فسأل ميشلينو أباه:

ـ هل نحن اغنياء ياأبي، لاننا نملك هذه الكمية من الطعام التي تكفينا لمدة عام كامل.

فصرخ بهم ماركوفالدو، وهو يخفي وجهه، ويختفي بعربته وحاجياته خلف رفوف العرض:

ـ ارجعوا بسرعة، وابتعدوا عن صندوق المحاسبة.

وانطلق مسرعاً منحنياً خلف عربته، كجندي يحتمي في الخندق من نيران العدو، محاولاً ان يضيع مرة اخرى بين الاقسام المختلفة، ولكن الضجة والاصوات الصاخبة التي تبعته، جعلته يلتفت خلفه، ليرى كل افراد عائلته، يركضون خلفه، بعرباتهم، في خط مستقيم، مثل عربات القطار. فهمس لافراد عائلته:

ـ لو خرجنا بهذه البضاعة فاننا سندفع ملايين الليرات ثمناً لها.

ولما كانت ممرات السوبرماركت، مثل متاهة كبيرة، تفضي إلى بعضها البعض، فقد كان بامكان الشخص التجول داخلها لساعات وساعات، وكان بامكان عائلة ماركوفالدو ان تقضي شتاء كاملاً في ذلك المكان، مع تلك الكمية من البضائع، دون ان يخرجوا، ولكن السماعات توقفت فجأة عن بث الحانها، وبدأت تعلن للجمهور، انه سيتم اغلاق السوبرماركت بعد خمس عشرة دقيقة، وترجو الجميع ان يتوجهوا إلى صناديق المحاسبة، والخروج من السوبرماركت.

وادرك ماركوفالدو انه قد حان الوقت للتخلص من هذه البضائع، فقد بدأت جموع العملاء المنتشرين يستجيبون لصوت السماعات، ودبت العجلة في السوبرماركت، حيث بدأ العملاء يلتقطون الاشياء بسرعة، بلا دافع او تدقيق، وساد الهرج والمرج، فاستغل ماركوفالدو، و (دوميتيلا) والاطفال تلك الظروف وبدأوا بالتخلص من تلك الاشياء باعادتها إلى الرفوف، او وضعها خلسة في عربات وسلال الآخرين وكان ذلك يتم بلا تخطيط، حيث وضعت الطائرات الورقية على رفوف لحم الخنزير، والملفوف على رف الكعك، ولم ينتبهوا أن احدى السيدات كانت تدفع عربة طفل وبداخلها طفل رضيع

Twitter: @ketab_n

فوضعوا مرطباناً فوق الطفل الرضيع. كان افراد عائلة ماركوفالدو الذين يقومون بتفريغ بعض الاشياء، دون ان يتذوقوها، يشعرون بعذاب اليم، يجعل الدموع تحتبس في عيونهم، ولكنهم حين كانوا يتخلون عن مرطبان المايونيز مثلاً، كانوا يجدون في عربتهم بدلاً منه، مجموعة من الموز، او دجاجة مشوية، او ماكينة بلاستيكية، وهكذا فقد اكتشفوا انهم قد جمعوا في عرباتهم اكثر مما افرغوا، وان العربات قد ازدادات امتلاء. لذلك استمرت عائلة ماركوفالدو في الصعود والنزول بعرباتهم بواسطة المصاعد الكهربائية، وكانت كل الطوابق والممرات تقودهم في اتجاهات، اجبارية، إلى بوابات الخروج وصناديق المحاسبة. تلك الصناديق التي كان صوتها يشبه صوت المدافع الرشاشة. ولكن من منهم يريد الخروج، لقد كان ماركوفالدو وافراد عائلته، في تجوالهم اشبه بحيوانات محبوسة في قفص، او سجناء في سجن مبهرج وجدران ملونة زجاجية.

وحين احس ماركوفالدو بالحصار، شاهد احد الجدران مفتوحاً، وتحته درج، عليه بعض المطارق، والحجارة، وعدة نجارة، اذ كان هناك احد المقاولين، يقوم ببناء ملحق للسوبرماركت، فترك العمال المكان كما هو، وغادروا المكان بعد انتهاء العمل، فوجد ماركوفالدو الفرصة مهيأة لدفع مشترياته، امامه في الفتحة، حيث الظلام يخيم على المكان، وتقدم من خلالها، تتبعه عائلته، مع عرباتها.

كانت العجلات المطاطية تتقافز على الارض، التي تنوعت بين رملية تنغرس العجلات المطاطية فيها، وخشبية، مكونة من ألواح من خشب غير مثبتة، وكان ماركوفالدو يتقدم العائلة، حيث توقف اخيراً امام لوح من الخشب، وتوقف خلفه الآخرون. واحسوا فجأة ان كل الجهات قد فتحت عليهم من خلال الاضواء المشعة وسط ذلك الظلام. وشعروا انهم قد غرقوا في بحر من الفراغ.

كانوا قد وصلوا إلى بناء خشبي، دعامته معلقة على مستوى الطابق السابق، والمدينة مفتوحة امامهم بنوافذها وشرفاتها المضيئة ولافتات الاعلان والدعاية، التي تنطلق منها الاشارات الكهربائية، والسماء من فوقهم مرصعة بالنجوم، يعانقها الضوء الاحمر المشع من هوائيات محطة الاذاعة.

Twitter: @ketab_n

وبعد لحظات شعروا بالدعامة الخشبية تهتز من ثقل البضاعة التي يحملونها في عرباتهم. فصاح (مشلينو):

ـ انني خائف من هذا الظلام.

وما هي الا لحظات حتى تقدم منهم فم كبير، لا اسنان له، فاغراً فاه، ماداً عنقه المعدني الطويل، كان ذلك الشيء عبارة عن رافعة، نزلت عليهم وتوقفت عند مستوى دعامتهم المعلقة، واضعة فكها السفلي عند حافة الدعامة، فانحنى ماركوفالدو وافرغ عربته بكل ما فيها من بضاعة داخل الفم، ثم افسح المجال للباقين بعده، ونفس الشيء حصل مع دوميتيلا، والاطفال الذين قلدوا والديهم، ثم اغلقت الرافعة بعد ذلك فكها على بضاعة السوبرماركت، وانسحبت وهي تصدر صريرها المزعج إلى الاسفل، حيث كانت لوحات الدعاية المختلفة المضاءة بالنيون، تدعو كل شخص لشراء البضائع المعروضة في ذلك السوبرماركت العظيم.

Twitter: @ketab_n

الربيع

١٧ . دخان، وريح، وفقاعات صابون

كل يوم، يقوم ساعي البريد، بوضع المغلفات البريدية، في صناديق بريد الحي، الا صندوق بريد ماركوفالدو، الذي لا يمد يده اليه ابداً، لانه لا يوجد اي شخص يكتب له. الاشياء الوحيدة التي كانت تدخل صندوق بريده، هي فواتير الكهرباء والغاز، وما عدا ذلك فلم يكن للصندوق أية قيمة او جدوى.

ذات صباح صرخ (مشلينو):

ـ أبي! أبي! هناك اشياء في صندوقنا البريدي.

فقال ماركوفالدو:

ـ دعك من هذا، إنها اوراق للدعاية والاعلان فقط، وهي موجودة في كل الصناديق الاخرى.

من كل الصناديق كانت تطل اوراق مطوية زرقاء وصفراء. كانت اوراق دعاية لمسحوق (البلانكاسول) تقول بأن المسحوق من افضل مساحيق الغسيل، واكثرها قدرة على عمل الرغوة، وكل شخص يقدم الكوبون الموجود على الورقة، يستطيع الحصول على عينة مجانية من هذا المسحوق.

كانت تلك الاوراق ملفوفة في رزم طويلة رقيقة، تظهر اجزاء منها من فتحات صناديق البريد، وبعضها مكور وملقى على الارض، بعد ان قام

Twitter: @ketab_n

اصحاب الصناديق بفتح صناديق بريدهم، ورموا تلك الاوراق، كما هي العادة مع اوراق الدعاية والاعلان، حيث يكورون هذه الاوراق بايديهم، ويلقونها كيفما اتفق.

وما ان سمع فيليبيتو وبيتروشيو وميشلينو حديث والدهم عن الكوبونات والعينات المجانية، حتى انطلقوا يجمعون الاوراق الملقاة على الارض، ويختلسون بعض الاوراق الاخرى، من صناديق البريد، او يلتقطون بعض الاوراق الاخرى، باستعمال بعض الاسلاك، من اجل الحصول على اكبر كمية من كوبانات (البلانكاسول).

وبعد ان جمعوا عدداً كبيراً من الكوبونات اخذوا يتصايحون:

ـ لقد جمعت انا اكبر كمية!

فيرد عليه الآخر:

ـ بل انا املك اكثر، هل تراهن؟

ويقول الثالث:

ـ دعونا نتأكد من العدد، لنعرف من منا جمع اكثر!

ومنذ ان علم الاطفال بان شركة (بلانكاسول) للمنظفات قد بدأت حملتها الاعلانية، وهم يطوفون بالحي، من بيت إلى بيت، من اجل مسح المنطقة، والتقاط جميع الكوبونات وجمعها. وكان بعض حراس البنايات يقومون بنهرهم صارخين:

ـ ماذا تفعلون ايها الاشقياء الصغار، ماذا تريدون ان تسرقوا، هيا هيا انصرفوا قبل ان نستدعي رجال البوليس.

اما البعض الآخر من حراس البنايات فقد كانوا يشعرون بالسرور وهم يشاهدون هؤلاء الصغار، يقومون بتنظيف المكان من تلك الاوراق المبعثرة التي تتناثر في المكان صباح مساء.

اما منزل ماركوفالدو المكون من غرفتين صغيرتين متواضعتين، فقد اصبح مخزناً لاوراق دعاية (البلانكاسول) الزرقاء والصفراء، التي كان يقوم الصغار بجمعها، ونشرها في المنزل من اجل اعادة عدها، ولفها في رزم جديدة، كما يفعل المحاسبون حين يقومون بتصنيف الاوراق المالية. واثناء عملية العد قال فيليبيتو:

Twitter: @ketab_n

- أبي، لقد جمعنا عدداً كبيراً من هذه الاوراق، فلماذا لا نصنع محلاً للغسيل والتنظيف.

كان هذا الوقت من السنة قد شهد فورة وانطلاقة دعائية غير منظمة في عالم صناعة المنظفات، فقد أخافت الحملة الدعائية التي بدأتها شركة (بلانكاسول) الشركات المنافسة لها، واثارت حسدها، فانطلقوا ايضاً يملأون صناديق بريد المدينة بعينات مشابهة تحمل كوبونات تخول حاملها الحصول على عينات مجانية، اكثر واكبر حجمًا من عينات شركة بلانكاسول.

لهذا فقد كانت الايام التالية، ايام عمل جاد لاولاد ماركوفالدو الذين انهمكوا في جمع الاوراق الملونة، وتجميع الكوبونات في كل صباح، كانوا يتوجهون إلى صناديق البريد، التي تبدو مثل شجرة الدراق في الربيع حاملة قصاصات الاوراق الملونة، خضراء، وردية، زرقاء، برتقالية، وكلها تعد المواطنين بغسيل ناصع البياض كالثلج، وتنصح المواطنين باستعمال انواعها الكثيرة مثل: (الووش رايت)، (اللافولوكس)، (البيوتيسودز) او (الهاندكلين).

وقد اصبح الأمر بالنسبة للاولاد اكثر تعقيداً، من حيث قدرتهم على تصنيف الاوراق، او من حيث اتساع رقعة المنطقة التي يجمعون منها تلك القصاصات، حيث انتقلت الحملة إلى مبان جديدة وشوارع جديدة، كذلك فقد كشف امر مناوراتهم، التي سرعان ما انتبه اليها صبيان الحي، وعرفوا السر الذي دفع (ميشلينو) واخوته، للركض وراء هذه الاوراق الدعائية، التي لم يكونوا يعيرون اي اهتمام لها، وعرفوا الجوائز القيمة التي سيحصل عليها كل من يقوم بجمعها، فزادت حمى التنافس بين هؤلاء الاولاد، وتجمعوا على شكل شلل ومجموعات، من اجل جمع الاوراق، او التصدي للمجموعات الاخرى، فزادت المشاكل، والصراعات، بين هؤلاء الاولاد، إلى ان استقر بهم الأمر اخيراً إلى عقد مفاوضات ومحادثات اسفرت عن اتفاق لتنظيم عملية جمع واقتناص تلك الاوراق. وكانت هذه الطريقة ، اكثر جدوى من عمليات الخطف، فقد اصبحت كل الاوراق في متناول ايديهم، واصبحت عملية الجمع اكثر تنظيمًا ودقة. لدرجة ان رجال دعاية (ووش رايت) او (رينزكويك) لم يكونوا ينتهون من توزيع الكوبونات على الابواب، حتى يكون خط سيرهم

Twitter: @ketab_n

تحت مراقبة الصغار الذين يتابعونهم خطوة خطوة، ليحصدوا كل ما كانوا قد وضعوه تحت الابواب على الفور.

كان من الطبيعي ان يقود هذه الحملة (بيتروشيو) و (فيليبيتو) و (ميشلينو)، لان الفكرة كانت فكرتهم في المقام الاول، ولانهم استطاعوا اقناع الاولاد ان الكوبونات ستكون للجميع، وان عليهم فقط تجميع هذه الكوبونات، وحفظها كما شرح لهم (بيتروشيو) من قبل، ان العملية منظمة كالبنوك مما حدا (بميشلينو) ان يسأل:

ـ هل نملك مغسلة ام بنكاً؟

ـ هذا لا يهم، المهم اننا سنصبح جميعاً من اصحاب الملايين.

كان الاولاد سعداء جداً. ومثابرين في عملهم، لدرجة انهم لم يكونوا يستطيعون النوم، وهم منشغلون في اعداد الخطط المستقبلية لهذا العمل.

ـ علينا ان نحصل على كل تلك العينات المجانية، ليكون لدينا كمية كبيرة من المنظفات.

ـ واين سنحتفظ بها؟

ـ سنستأجر مستودعاً لذلك!

ـ ولماذا لا نستأجر شاحنة؟

ولما كانت الحملات الدعائية موسمية مثل مواسم الفواكه، فقد انتهى موسم حملة المنظفات بعد عدة اسابيع، ولم يعد من الممكن رؤية مثل هذه الاوراق في الصناديق، وبدلاً منها، وجدت اعلانات اخرى عن منتوجات ازالة مسامير اللحم، فاقترح احد الاولاد:

ـ لماذا لا نقوم ايضاً بجمع هذه الاوراق؟

ـ ولكن اقتراحه لم يوافق عليه، واتفق الكل على تركيز جهودهم من اجل تحويل هذه الكوبونات إلى عينات حقيقية من المنظفات وقرروا ان يبدأوا عملية استبدال الكوبونات، بالذهاب إلى المحلات المعنية، وطلب اخذ العينات بدل الكوبونات. الا ان هذه العملية التي كانت في غاية السهولة في الظاهر، كانت اكثر تعقيداً، واتضح لهم انها ستأخذ وقتاً اطول مما كان متوقعاً لها في البداية.

وقد جرت العملية كما تجري المناقشات العسكرية، حيث قرروا ان يذهب طفل واحد في وقت واحد، إلى مكان واحد، يقدم ثلاثة او اربعة

Twitter: @ketab_n

كوبونات، لانواع مختلفة ومتنوعة من المنظفات، حتى اذا حاول اصحاب المحلات، او مسؤولو المخازن في تلك المحلات، المساومة والمماطلة، او اعطاءهم نوعاً واحداً من المنظفات، يقول الطفل:

ـ ان امي ترغب في تجريب الانواع المختلفة من هذه المنظفات لترى ايها افضل واكثر جدوى.

وقد تعقدت الامور اكثر فأكثر، حين بدأت المحلات، ترفض مقايضة الكوبونات، بالعينات المجانية من المنظفات، الا لمن يشتري حاجيات اخرى منها، لذلك تعلق الاطفال بامهاتهم، واخذوا يرافقونهن إلى المحلات، وينتظرون ذهابهن اليها بفارغ الصبر. ومع ذلك فقد لاحظ الاطفال ان العملية ستستغرق وقتاً طويلاً، وستحتاج إلى مصاريف اضافية، فاحتياجات الامهات من المحلات قليلة، والنقود قليلة ايضاً، ولن يستطيعوا مقايضة الكوبونات الكثيرة التي يملكونها، لذلك قرروا ان يبدأوا المرحلة الثالثة من خطتهم، وتقضي هذه الخطة ببيع العينات التي قاموا بجمعها، لكي يحصلوا على النقود التي تمكنهم من الذهاب إلى المحلات. ومبادلة الكوبونات بالمنظفات. فقرروا ان يقوموا ببيع تلك المنظفات بانفسهم، حيث اخذوا ينتقلون من منزل إلى آخر، يقرعون الاجراس، وهم يحملون عينات من المنظفات مثل (رينزكويك) او (بلانكاسول) ويقولون:

ـ سيدتي، هل انت مهتمة بغسيلك، لدينا منظفات غسيل مدهشة.

وكان بعض اصحاب المنازل يأخذون العينات منهم، ثم يوصدون الباب في وجوههم فيبدأ الاطفال بالصراخ، وبالطرق على الابواب بقبضاتهم، وهم يصيحون:

ـ هي.. اين النقود، نريد النقود.

وكان الصوت يأتيهم من خلف الابواب:

ـ نقود، أية نقود، انها عينات مجانية، اذهبوا إلى بيوتكم ايها الاولاد المشاكسون.

ومن جراء هذا الركود في تسويق تلك العينات، اصبح منزل ماركوفالدو مثل مخازن البقالات، مليئاً بانتاج شركات مساحيق التنظيف المتنوعة مثل (البيوتيسودز) و (الهاندكلين) و (اللافولوكس)، ولكن الفرق بينه وبين

Twitter: @ketab_n

المخازن، ان بضاعته، لا يمكن ان تجني منها فلساً واحداً، فهي عينات مجانية، ومشاع مثل مياه النوافير.

في مثل هذا الجو، كان لابد من انتشار الشائعات بين ممثلي شركات انتاج مساحيق التنظيف، وكانت هذه الشائعات تقول، بان بعض الاولاد يقومون بجولات، بين البيوت والمنازل، ويتنقلون من حي إلى حي، لبيع نفس عينات الانتاج التي كان ممثلو شركات الانتاج يتوسلون ربات البيت كي يقبلنها مجاناً.

وكانت التقارير التي تصل إلى ممثلي الشركات، تصنع جواً من التشاؤم، ذلك بان هؤلاء الذين يهددون انتاجهم، ويسوقون عيناتهم المجانية، لربات البيوت اللواتي سبق لهن رفضها، يتقاضون النقود عليها، وهذا بحد ذاته يشكل ضربة لتلك الشركات، التي تقبل النسوة على شراء عيناتها المجانية بالنقود، بعد ان كن قد رفضنها مجاناً.

لذلك فقد اجتمعت مكاتب التخطيط التابعة لتلك الشركات، واستدعت اخصائيي ابحاث التسويق، لاستشارتهم، وبعد مناقشات طويلة، توصلوا لقرار مفاده ان مثل هذه المنافسة غير الشريفة، لا يمكن ان تتم الا من قبل جامعي البضائع المسروقة، ولهذا فقد قرروا تقديم بلاغ للشرطة ضد هؤلاء المجرمين المجهولين، فابتدأت الشرطة بتسيير دوريات في الاحياء السكنية، ومنها الحي الذي يسكنه ماركوفالدو، باحثين عن اللصوص، والمكان الذي يخفون فيه بضائعهم المسروقة. وهكذا تحولت المنظفات إلى سلاح خطر كالديناميت، مما جعل الخوف يتسلل إلى قلب ماركوفالدو، وهو يرى المنظفات متجمعة في منزله، ويقول لاولاده:

ـ لا اريد ان ارى غراماً واحداً من هذه المنظفات في بيتي.

فاجاب الاطفال:

ـ ولكن اين سنضعها، لا احد يريد ان يراها في منزله؟

فقال ماركوفالدو بحدة:

ـ تصرفوا.

حينذاك قرر الاطفال ان يلقوا بكل ما جمعوه في مياه النهر، قبل طلوع الفجر. وفي الليل بدأت العربات بالوصول إلى بيت ماركوفالدو، فقد وصلت اولاً عربة يقودها (بيتوشيو) ويدفعها اخوته، معبأة بالصناديق، من مساحيق

Twitter: @ketab_n

(ووش رايت) و (لافولوكس)، ثم ظهرت عربة اخرى يقودها ابن البواب الذي يحرس العمارة المقابلة، وعربات، وعربات حملت المساحيق، والعينات، وسارت في موكب واحد حتى وصلت إلى منتصف الجسر، وهناك توقف الاطفال قليلاً، ليفسحوا المجال لاحد راكبي الدراجات كي يمر، بعد ان صوب نحوهم نظراته الفضولية، وبعد ان غاب عن انظارهم صرخوا:

ـ لنبدأ الآن!

فاخذ (ميشلينو) علبة، وقذف بها في النهر، فصرخ به فيلبيتو:

ـ ايها الغبي، الا ترى انها تطفو، عليك ان تفرغ المسحوق في النهر، لا ان تلقي بالصندوق فيه.

ومن الصناديق المفتوحة، بدأت سحابة بيضاء تتجه إلى الاسفل، مستقرة فوق المياه، التي بدأت بامتصاصها وتذويبها، محيلة اياها إلى مجموعة من الفقاعات الصغيرة، وبهذه الطريقة افرغ الاطفال كيلوغرامات عديدة في مياه النهر.

وبينما هم يفرغون تلك العبوات، صرخ (مشلينو):

ـ انظروا.. انظروا هناك.

واشار إلى اسفل المجرى، بعيداً عن الجسر، حيث توجد بعض الشلالات، وحيث تبدأ مياه النهر تندفع إلى الاسفل متلاطمة بقوة، بفعل قوة الدفع والتصادم، ومع ان الفقاعات كانت تنزل للاسفل بشكل فوضوي، الا انها بدأت بالظهور ثانية، بعد ان اصبحت الآن مؤلفة من الفقاعات الضخمة المنتفخة. وقد تضخمت اكثر فاكثر حتى وصلت إلى ارتفاع الشلالات، مشكلة رغوة مثل رغوة معجون الحلاقة، ولما كانت تلك المساحيق من اصناف مختلفة ومتنوعة ومتنافسة، فقد كانت تريد ان تظهر قدرتها على المزيد من صنع الرغوة، وهكذا امتلأ النهر بالفقاعات التي فاضت على ضفتيه. وحين شاهد الصيادون الذين كانوا على وشك النزول إلى النهر، باحذيتهم الطويلة، ذلك المنظر، سحبوا خيوط شباكهم، وفروا هاربين.

وبفعل نسمات الهواء التي انطلقت في ذلك الفجر، فقد انفصلت بعض فقاعات الصابون، عن سطح الماء، وتطايرت بخفة، وانطلقت كالهالة الوردية حيث رآها الاطفال تتطاير فوق رؤوسهم، فتصايحوا (أووه)، اما الفقاعات

Twitter: @ketab_n

فقد تابعت سيرها، تدفعها تيارات الريح في المدينة، عبر الشوارع، وعلى مستوى سطح البيوت، متحاشية الاصطدام بالزوايا، او المزاريب. ونجحت بعض انابيب التصريف بفصل بعض هذه الفقاعات عن بعضها البعض فتطايرت كل واحدة منها على حدة في اتجاهات مختلفة، وبسبب ارتفاعها المتزايد، اخذت الفقاعات تتطاير في الفضاء بسرعة متزايدة.

ولان النهر، كان مايزال يلقي بالمزيد من الفقاعات، مثل اناء من الحليب يغلي على النار، وكانت الريح تدفع المزيد من هذه الفقاعات، امتلأت سماء المدينة بهذه الفقاعات التي اصبحت بفعل اشعة الشمس، مثل قوس قزح، تغزو السماء، وتلون المدينة. وكانت هذه الفقاعات تطير فوق هوائيات التلفزيون، وتلاحق الرجال الذاهبين إلى اعمالهم على دراجاتهم، وكأن كل واحد منهم يجر خلفه مجموعة من البالونات الملونة.

كان من الطبيعي ان يكون ركاب الترام هم اول من انتبه لهذا الأمر، فصاحوا:

ـ انظروا ما هذا الشيء الذي يتطاير في السماء.

فتوقف سائق الترام، وهبط الركاب، واخذوا يحدقون في السماء، ثم توقفت العربات والدراجات النارية، والسيارات، وموزعو الصحف، والخبازون، وجميع المارة، ومن ضمنهم ماركوفالدو، الذي كان في طريقه إلى العمل ذلك الصباح، واخذ كل منهم يرفع رأسه ليلاحق الفقاعات المتطايرة.

قالت سيدة عجوز بخوف:

ـ هل انتم متأكدون من ان هذا الذي ترونه ليس اشعاعاً ذرياً؟

وما ان لفظت العجوز تلك الكلمة حتى كان احد الرجال يولي هارباً، عندما رأى ان احدى هذه الفقاعات على وشك السقوط عليه، وهو يصيح:

ـ انها مشبعة بالاشعاع الذري!

واستمرت الفقاعت تتطاير، ملقية هالاتها الوردية المشعة، واصبحت رقيقة وخفيفة جداً، لدرجة ان نفخة واحدة من فم الانسان تجعلها تطير بعيداً، وتعجل في اختفائها، مما جعل الجميع، يطردون الخوف والقلق من نفوسهم، بنفس السرعة التي انتشر بها القلق والخوف في صفوفهم، واخذوا يقولون:

ـ اشعاع! اي اشعاع، ياللسخرية هذا ليس إشعاعاً! انها مجرد

Twitter: @ketab_n

فقاعات صابون كتلك التي ينفخها الاطفال.

وتملكتهم موجة عارمة من الفرح والسعادة فاخذوا يتصايحون:

ـ انظروا إلى هذه، انظروا إلى تلك.

ويشيرون إلى تلك الفقاعات الضخمة ذات الاحجام الكبيرة التي لا تصدق، والتي كانت احجامها تتضاعف مرة او مرتين، حين تصطدم، وتلتحم مع بعضها البعض. وكانت السماء والاسطح العالية للبنايات قد اكتست بهالة من الالوان الجميلة، التي لم ترها من قبل.

وحين اخذت مداخن المصانع، التي ابتدأت بالعمل ذلك الصباح، باطلاق دخانها الاسود، اخذت اسراب الفقاعات تتحد مع سحب الدخان الاسود وهنا انقسمت السماء إلى قسمين، قسم تلونه الفقاعات، وقسم يغمره الدخان الاسود، وكانت الريح التي تعصف بالدخان والفقاعات، تصنع معركة حقيقية بين الدخان والفقاعات، وكثيراً ما تقع بعض الفقاعات اسيرة الدخان المتصاعد إلى اعلى، او تأسر الفقاعات بعض ذرات السناج التي تسقط بفعل رطوبة الفقاعات، ولان احداً لا يعرف سر هذا الأمر،فقد كانت العيون تواصل بحثها في السماء علها تهتدي إلى شيء. اما ماركوفالدو، فبعد ان بحث في السماء، لم يعد يرى بعد لحظة، سوى الدخان، ثم الدخان، ثم الدخان، ولا شيء غير الدخان.

Twitter: @ketab_n

الصيف

١٨ . المدينة كلها له وحده

طوال احد عشر شهراً من كل عام، يشعر سكان المدينة، بحب جارف تجاه مدينتهم، ويتـوعـدون اي انسان يحاول الاساءة اليها، حيث تتملكهم مشاعر فياضة دافقة تجاه كل شيء فيها، من ناطحات السحاب، وحتى اكشاك بيع السجائر، مروراً بدور السينما ذات الشاشات العريضة، التي لا يستطيع احد ان ينكر جدواها الاقتصادية، او قدرتها في جذب الناس للمدينة.

وربـما كان ماركوفالدو، هو المواطن الوحيد الذي لا يمتلك مثل هذه المشاعر، هذه المشاعر التي لا تمنح، ولا تأتي بقرار، وهذا ناتج عن انشغاله بالتفكـير بجملة اشياء، منها مثلاً، انه لايعرف منافع هذه المدينة، او مدى تأثيرها على الآخرين، ذلك انه لا يملك فرصة للاتصال بالآخرين، وثانياً، لأن رأيه في المدينة سواء اكان في صالحها ام ضدها، لا يقدم ولا يؤخر، ولا وزن له.

الا أنه، وفي وقت معين من كل عام، وعند بداية شهر آب بالتحديد، يطرأ تغير كبير على مشاعر سكان المدينة، حيث يتحول الحب إلى كره، وتصبح ناطحات السحاب، وممرات المشاة، وانفاق الارض، ومواقف السيارات، غير مقبولة وتدعو إلى التعب والملل والارهاق. ويصبح جل اهتمام السكان منصباً على مغـادرة المـدينـة، وتـركهـا باسرع وقت ممكن، لذا تراهم يحتشدون في

Twitter: @ketab_n

القطارات، ويتزاحمون على ارصفة الاوتوسترادات، وما ان يأتي يوم الخامس عشر من آب، حتى تكون المدينة قد خلت تماماً من سكانها، ولا يبقى فيها سوى شخص واحد فقط هو ماركوفالدو.

وكان ماركوفالدو، يخرج كل صباح ليتمشى في المدينة، حيث الشوارع العريضة مفتوحة امامه، خالية من السيارات، وواجهات الابنية تكسوها غلالة رمادية من جراء اسدال حديد المزالج على عدد غير محدود من النوافذ، حيث تبدو جدران المدينة مثل اسوار السجن.

ولما كان ماركوفالدو يحلم طوال العام باللحظة التي يستطيع فيها استعمال الشوارع كشوارع حقيقية، كان يسير متبختراً في وسطها، او قاطعاً اشارة المرور الحمراء كيفما يشاء، او يتوقف طويلاً وسط الساحات العامة. كان يجد الفرصة مهيأة في مثل هذا الوقت من السنة لتحقيق احلامه، وكان يدرك جيداً ان المتعة لا تأتي فقط من ممارسة تلك الاشياء غير العادية، وانما من رؤيته لذلك العالم المختلف، حيث تغدو الشوارع كسفوح الوديان، او قيعان الانهار الجافة، وتبدو العمارات الشاهقة كالجبال الشديدة الانحدار، او قمة الهاوية.

في هذا الوقت، تلاحظ فقدان اشياء معينة، وهذه الأشياء ليست طابور السيارات الطويل، او الازدحام عند تقاطع الطرق، او تدافع الجموع عند مداخل المحلات التجارية الكبرى، او المنتظرين على مواقف الترام. الاشياء المفقودة لملء هذه المساحات الفارغة، والساحات الكبيرة، هي فيضان انابيب المياه والمجاري، او غزو جذور الاشجار للجادات، حيث تعمل على تشقق الاسفلت.

كانت عينا ماركوفالدو تطوفان المدينة متفحصتين، متمنيتين ظهور مدينة اخرى مختلفة، مدينة من لحم ودم واعصاب، تحت هذه المدينة الغارقة بالدهان والقطران، والزجاج والبلاط. لقد اكتشف وهو يمر بالقرب من البناية التي يمر من امامها كل يوم، حقيقة هذه البناية، لقد كانت عبارة عن محجر، محجر كبير، لحجارة الرمل المسامية الرمادية، واكتشف ورشة للبناء خلف احد الحواجز المقامة من اخشاب الصنوبر، هذا الخشب الذي مايزال - كما توحي عقده - حياً وقابلاً للنمو، وفوق لوحة كبيرة للاعلان، معلقة على محل لبيع الاقمشة، كانت هناك مجموعة من العث الصغير، تنام بهدوء. وكل هذا يعني،

Twitter: @ketab_n

انه حين يهجر الانسان مدينته في مثل هذا الوقت، فان المدينة ستقع لا محالة في اسر سكانها الآخرين، الذين كانوا يختفون فيها، وهم الآن يمتلكون ناصية الامور، ويتحكمون بالاشياء.

وكان ماركوفالدو يسلي نفسه لفترة من الوقت، بمتابعة طوابير النمل التي تهرب إلى الجانب الآخر، بعد ملاحقة مجموعة من الخنافس الارضية الهائمة لها، ثم يتوقف مرة اخرى، ليتابع مجموعة من الديدان في سيرها المتعرج، ولم تكن الحيوانات وحدها هي التي غزت المنطقة، فقد اكتشف ماركوفالدو في الجهة الشمالية من المدينة حيث اكشاك بائعي الصحف، طبقة كثيفة من الفطريات، واكتشف ايضاً ان الكثير من اوراق واغصان مطاعم ومقاهي الرصيف، قد أكلت.

ولكن لا بأس، فالمدينة ماتزال قائمة وموجودة.

وبدأ ماركوفالدو بتفحص حجارة المدينة، فوجد انها تتألف من الفسيفساء، من الحجارة البائسة، تختلف عن بعضها البعض، في المنظر والملمس، وفي مقاومتها للحرارة، وصلابتها، وصلاحيتها. ولكنه حاول ان يتناسى هذه الارصفة المخططة كالحمار الوحشي، واخذ يتقافز في الشوارع كالفراشة، دون ان يحس بشيء. وفجأة قفز ماركوفالدو قفزة رهيبة، محاولاً تجنب سيارة سباق كانت تسير بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، لامست فخذه فسقط على الارض مذهولاً، وكان نصف ذهوله من الخوف والنصف الآخر من الصوت الذي صدر عن السيارة، حيث كان صوت كابحها يزمجر كالصاعقة، وهي تكاد تنقلب حول نفسها على شكل دائرة، ثم توقفت السيارة، وخرج منها مجموعة من الشباب، الذين يلبسون قمصاناً مفتوحة، كالفتوات.

اعتقد ماركوفالدو انهم قد خرجوا لضربه، لانه كان يسير في منتصف الشارع، وقد ارتعب ماركوفالدو اكثر حين رأى الشباب مسلحين باسلحة غريبة، وحين رآهم يحيطون به وهم يصيحون:

ـ لقد وجدناه، لقد وجدناه اخيراً.

وقال احدهم وهو يقرب عصاً فضية (ميكروفون) من فمه:

ـ ها هو إذن، الساكن الوحيد، الذي لم يغادر المدينة في عطلة منتصف آب استميحك العذر ياسيدي، هل لديك مانع، في نقل انطباعاتك

Twitter: @ketab_n

لمشاهدينا.

ولم يكد ينتهي من كلماته، حتى انفجر ضوء يعشي الابصار، في هذا الجو الحار، الذي فاقت حرارته حرارة الفرن، وكاد يغمى على ماركوفالدو، وهم يركزون الاضواء الكاشفة، والكاميرات والميكروفونات عليه.

وكلما تمتم ماركوفالدو بثلاث او اربع كلمات، كان الشاب يرفع الميكرفون إلى فمه، ليقول:

ـ آه، أنت تريد أن تقول..

وينطلق بالكلام لمدة عشر دقائق. ثم يعيد الميكرفون لماركوفالدو الذي يتمتم كلمةً او كلمتين.

وهكذا انتهت المقابلة التلفزيونية مع ماركوفالدو، فتساءل ماركوفالدو:

ـ هل يمكنني الذهاب الآن؟

فاجابوه:

ـ طبعاً، مع الشكر الجزيل، لكن، اذا لم يكن لديك ما تفعله، وتشعر انك راغب في الحصول على شيء مقابل ذلك، فيمكنك البقاء معنا لمساعدتنا.

وفي مكان آخر، وجد ماركوفالدو الساحة قد انقلبت رأساً على عقب، سيارات، وشاحنات، واجهزة صوت وكاميرات ضخمة على عجلات، وبطاريات، واضواء، ومجاميع كبيرة من الرجال، في ملابس العمل ينتقلون من هذا المكان لذاك المكان، يتصبب العرق من اجسادهم. وما هي الا لحظات حتى وصلت سيارة فخمة، ونزلت من السيارة نجمة السينما الشهيرة، وكان مخرج برنامج غرائب آب التلفزيوني، يقوم باصدار اوامره للرجال:

ـ هيا، هيا ياشباب، لقد وصلت النجمة، سنبدأ بتصوير لقطة النافورة، ستقوم النجمة، بالغوص في نافورة المياه في ساحة المدينة الرئيسية.

اما العمل الذي اوكل لماركوفالدو فقد كان امساك ونقل مجموعة من الاضواء الكاشفة المثبتة على قاعدة ثقيلة، حول الساحة. واخذت الساحة الكبيرة تهتز تحت صوت الآلات، وارتعاشات الاضواء الكاشفة المقوسة، وتزمجر الطرقات تحت تلك الالات الحديدية المتنقلة، وتنطلق بين لحظة واخرى النداءات والاوامر.

اما عينا ماركوفالدو، شبه الدائخ، فلم تكونا تريان شيئاً، لقد عادت

Twitter: @ketab_n

المدينة لحالتها الاولى، واسترجعت مكانتها مثل المدن الاخرى، وقد كانت تلك اللحظات، لمحات لحظية، اشبه بلحظات الحلم.

Twitter: @ketab_n

الخريف

١٩ . حديقة القطط العنيدة

كانت مدينة القطط، ومدينة البشر، توجد إحداهما داخل الأخرى، ولكنهما لم تكونا المدينة نفسها. اما الآن، وقد اختلفت الامور، فان قليلاً من القطط، تستطيع استرجاع ذلك الزمان، الذي لم يكن فيه اي اختلاف: فقد كانت شوارع وساحات مدينة البشر، هي نفسها شوارع وساحات مدينة القطط. وكانت الممرات، والساحات الداخلية للبيوت، والنوافير، وحتى الشرفات، تتسع للبشر وللقطط، في الوقت نفسه. اما الآن، ومنذ بضعة اجيال، فقد اصبحت حياة الحيوانات الاليفة اسيرة لهذه المدينة غير المضيافة، ومظاهرها العصرية، فقد امتلأت الشوارع بحركة مرور قاتلة وخانقة لا تتوقف، وفي كل قدم مربع من المدينة الذي كان في الماضي عبارة عن حديقة غناء، او ساحة فارغة، او ظلال بيوت، اصبح الآن عبارة عن تجمعات سكنية ضخمة، ترتفع إلى عنان السماء، او تجمعاً لاسكان مؤسسة الضمان الاجتماعي، او ناطحة سحاب جديدة، واكتظ كل مدخل بالسيارات الواقفة، واخذت الساحات الداخلية، تختفي واحدة تلو الاخرى تحت طبقات الخرسانة المسلحة، التي تتحول إلى كراجات، او مواقف للسيارات، او دور للسينما، او مخازن، او ورش للعمل. اختفت الاسطح المنخفضة التي كانت تمتد على مرمى البصر، والتي كانت تمتلىء بخزانات المياه، والشرفات المضيئة، والنوافذ التي

Twitter: @ketab_n

تطل على السماء، والهياكل الحديدية التي يعلوها الصدأ، واصبحت لا ترى سوى هذه العمارات الضخمة، التي تحاول كل واحدة منها ان تسابق الاخرى نحو السماء.

كانت القطط الحديثة الولادة، تبحث في عصر المدينة الراهن، عن بعض عادات وتقاليد اجدادها وآبائها، ولكن دون جدوى، فلم يعد بمقدورها ان تقفز بحريتها، تلك القفزات السهلة فوق حواف الافران، او المزاريب، او قنوات التصريف، ولم يعد بمقدورها التسلق، او الانزلاق على بلاط الاسطح. لقد تغير الحال في هذه المدينة العصرية، الممتدة رأسياً، والمضغوطة، لقد عبىء كل فراغ في المدينة، بطبقة من الاسمنت، مرتبطة بطبقة اخرى واخرى، مبشرة بنوع جديد من المدن، المدينة السالبة، التي لا تكترث لشيء، والمكونة من شرائح فارغة بين كل جدار وجدار، تاركة مسافات بين بعضها البعض، اقل مما تسمح به انظمة البناء ومن بناء لبناء، ومن عمارة إلى اخرى، تكونت هذه المدينة، وتكونت الفراغات، والآبار، وممرات التهوية، ومسارب الدخول والخروج للسيارات الداخلة والخارجة من وإلى الساحات الداخلية، ومداخل الاقبية السفلية، للعمارات العالية، والتي تشكل في مجموعها، شبكة من الاقنية الجافة، في كوكب البلاط والقار وخلال هذه الشبكة المتداخلة، كانت القطط القديمة، التي كانت تسكن المدينة منذ فترة طويلة، تحاول ان تمارس بعضاً من حياتها السابقة.

كان ماركوفالدو يقضي فترة الراحة، من العمل، والتي تمتد ما بين الثانية عشرة والثالثة، بعد الظهر، في المصنع الذي يعمل فيه. وحين يغادر جميع المستخدمين المكان متجهين نحو بيوتهم، كان يحمل غذاءه، الذي يغلفه باوراق الصحف، ويتجه به نحو المكان الخاص الذي اختاره للجلوس، بين صناديق المخزن، ليأكله هناك، حيث كان يجلس وحيداً يبتلع شطائره، ويدخن نصف سيجارة، ثم يبدأ بالتجول متكاسلاً بين الصناديق بانتظار بداية الفترة الثانية من العمل. وكان بين فترة واخرى، يتبادل التحية مع احدى القطط التي كانت تطل عليه من احدى النوافذ، مربوطة بشريط ازرق حول عنقها، وكانت تلك القطة سمينة، وجيدة التغذية، فاعتقد ماركوفالدو انها ملك عائلة ثرية، فلم يجد بأساً في اقامة علاقات جيدة معها.

Twitter: @ketab_n

ومـع الايام توطدت علاقات الصداقة بين ماركوفالدو والقطة، وأخذ يصحبها معه، خلال جولته الصغيرة التي كان يقوم بها بعد تناول طعام الغداء. وقد تطورت العلاقة، بحيث انك قليلاً ما تجد ماركوفالدو يتمشى دون قطته. وقد اخذ ماركوفالدو يعيد النظر في الامكنة، واصبح ينظر اليها من خلال عيني القطة، وقد ظهر له بأن هذه الامكنة تختلف كثيراً عن الهيئة التي كان يراها عليها، فقد اكتشف ان هذه الاماكن اكثر ملاءمة للمخالب المخملية الرقيقة، في حين ان اي شخص كان يظن ان هذا المكان خال تماماً من القطط. ولكن الجولات اليومية، مع القطة، جعلت ماركوفالدو يكتشف انواعاً جديدة من القطط، وجعلته يتعلم بعض المظاهر والعادات الخاصة بالقطط، مثل موائها وهسهستها، وحتى حيلها، وتنافسها فيما بينها، وانتصاب شعر فرواتها، وتقوس ظهـورها، والروابط التي تربط بينها. وكلما اعتقد انه اصبح خبيراً بالمجتمع القططي، او انه قد تغلغل فيه واكتشف ادق اسراره، كان يشعر انه مايزال تحت الاختبار، وان هذه العيون المحدقة فيه، والتي تصطف حوله، على شكل خط مستقيم، او نصف دائـرة، او شبـه دائرة، تحاول ان تضعه دائمًا تحت المجهـر، فهـو تحت مراقبـة دائمة تحت هوائيات الشوارب المتحفزة والعاملة كالرادار. فقد كانت القطط، تجلس حول ماركوفالدو كالتماثيل الجامدة، لا تنطق بشيء، وكان ماركوفالدو يراقب اجسامها، من مثلث انوفها الوردية حتى مثلثات شفاهها السوداء، فلا يشاهد شيئاً يتحرك، سوى قمم الآذان المهتزة بحركات شبيهة بحركات الرادار.

وحين وصل ماركوفالدو ذات يوم إلى نهاية طريق ضيق قذر وفارغ، بين جدارين، هربت القطط التي قادته إلى ذلك المكان، ونظر ماركوفالدو حواليه، ليرى ان القطط قد اختفت كلها، دون ان يدري الجهة التي توجهت اليها، حتى قطتـه الاليفـة، ورفيقـة دربه، تركته وحيداً في هذا المكان، وذهبت. فاكتشف ان لمملكة القطط اسراراً وحدوداً وطقوساً وعادات وتقاليد ، لم يستطع اكتشافها بعد، او فك اسرارها.

لكن مهما كان الأمر، فانك تستطيع ان تكتشف العالم من حولك من خلال الثقوب الصغيرة وفتحات التلصص، التي تطل منها في مدينة القطط، لترى مدينة البشر على حقيقتها.

Twitter: @ketab_n

وفي ظهر احد الايام، قادت القطة الاليفة ماركوفالدو لاكتشاف مطعم (بياريتز)، اذ انه لم يكن بمقدوره ان يرى ذلك المطعم الا اذا اتخذ شكل قطة، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، اي ان يسير على اربع. وهكذا كان، فقد سار ماركوفالدو خلف قطته، وتسلق الجدار كما تسلقته، ثم سار على حافة كل قاعدتها نتوءات منخفضة، تشبه النوافذ، وهي مستطيلة الشكل ومفتوحة، ثم قلد القطة في جلستها، واتخذ موقعه قبالة تلك النوافذ، التي صممت للتهوية والاضاءة، ونظر إلى الاسفل، ليرى تلك القاعة الفخمة ويستمع إلى كمنجات الغجر وهي تعزف الحانها، ثم يشاهد بعد ذلك اطباق طيور الحجل والسمن، تتقدم بسرعة الريح، على اطباق فضية، يحملها الغادون الذين يرتدون قفازاتهم البيضاء، والمعاطف الطويلة، ذات الذيول، على رؤوس اصابعهم.

ولأن ماركوفالدو كان يخشى من ان يظهر وجهه من خلال الفتحات، فقد اتخذ وضعاً معاكساً، فرأى المشهد، بدقة اكثر، حيث رأى من فوق، تلك الاطباق المتطايرة، بطيور السمن والحجل، فوق الايدي ذات القفازات البيضاء، واحذية النادلين الجلدية، التي تلمع فوق الارضية ذات الرسوم الفسيفسائية، يخرج منها شجرة نخيل قصيرة، وعلى اغطية الموائد، صف من الاوعية الكريستالية، التي تستعمل لحفظ زجاجات الشامبانيا، باغطيتها التي تشبه الاجراس.

بالطبع لم تكن نوافذ الطعام، هي ما يثير اهتمام القطة، وانما الفتحة المطلة على المطبخ، لان النظر إلى غرفة الطعام، شيء عديم الجدوى، وطعامها بعيد المنال، وهو من وجهة نظر القطة منظر مشوه، وغير حقيقي، اما غرفة المطبخ، فهي الشيء الوحيد المضمون، لمخلب يخطط لخطف طير، او سمكة طازجة.

كانت القطة ترغب في ان تقود ماركوفالدو إلى المطبخ، تعبيراً عن تقديرها وفهمها للصداقة، او من اجل مساعدتها في انجاح خطتها في خطف ما تريد. ولكن ماركوفالدو كان غير راغب في ترك موقعه المطل على القاعة الرئيسية لاسباب عدة: اولها؛ انه كان مسحوراً بمظاهر الترف الموجودة في ذلك المكان. وثانيها؛ ان هناك شيئاً ما لفت انتباهه في القاعة. مما جعله يتغلب على خوفه من ان يراه الموجودون، فاستمر بالتلصص، وادخل رأسه من الطاقة حتى

Twitter: @ketab_n

وصل إلى منتصف الغرفة قريباً من النافذة، حيث كان حوض زجاجي يشبه معرض الاحياء المائية تسبح فيه بعض انواع سمك السلمون السمين.

وفي تلك اللحظة اقترب من الحوض رجل تبدو عليه امارات الثراء، ذو صلعة لامعة، ولحية سوداء، يرتدي بدلة سوداء، يسير خلفه نادل عجوز، يرتدي معطفه ذا الذيل الطويل. ومعه شبكة صغيرة كشبكة صيد الفراش. وقف الرجل المهيب الذي يرتدي البدلة السوداء، امام حوض سمك السلمون المرقط، بوقار وجدية، ثم رفع يده مشيراً إلى إحدى السمكات، وبطريقة جدية، وببطء شديد انزل النادل العجوز شبكته في الحوض، ملاحقاً السمكة التي اشار اليها، الرجل لاصطيادها، ثم حمل شبكته، كما يحمل الفارس رمحه، وتوجه بها إلى المطبخ والسمكة تتخبط في الشبكة، اما الرجل، فقد نظر إلى الحوض بوقار، ثم عاد إلى مقعده، كقاض اصدر حكمًا بالاعدام، وجلس ينتظر عودتها اليه، مقلية.

اخذ ماركوفالدو يفكر في الأمر، محاولاً ايجاد خطة ما، لانزال خيط يستطيع بواسطته اصطياد إحدى سمكات السلمون، ولكنه خاف ان يتهم بالسرقة. وحين فكر بالأمر مرة اخرى، وجد ان مثل هذا الاتهام بعيد الاحتمال، حتى لو اكتشف امره، فانه سيتهم بالصيد في مكان غير مرخص للصيد، وحين وصل إلى هذه النتيجة هب من فوره، غير مهتم بمواء صديقته القطة التي تدعوه نحو المطبخ، وذهب لجمع عدة الصيد ولوازمها.

لم ينتبه احد في مطعم بياريتز للخيط الطويل الدقيق المجهز بالصنارة والطعم، وهو يسقط في حوض الاسماك، اما الاسماك، فانها ما ان رأت الطعم، حتى تجمعت حوله، وتمكنت احداهن من عض الدودة فعلقت بالصنارة، ثم ابتدأت بالارتفاع خارجة من الماء، ينعكس بريقها الفضي فوق الموائد المعدة، وعربات المقبلات، ولهيب المقلاة الازرق، حتى اختفت وراء الطاقة.

وكان ماركوفالدو قد سحب الخيط، بحركة صياد ماهر خبير، حيث هبطت السمكة خلف ظهره، ولم تكد سمكة السلمون ترتطم بالسطح، حتى قفزت عليها القطط، مجهزة على ما تبقى من الحياة فيها، واخذ ماركوفالدو الذي شاهد القطة تسرق السمكة، يهرول خلفها قافزاً بحركات سريعة،

Twitter: @ketab_n

واضعاً قدميه على عصا الصنارة، الا ان القطة كانت قد قطعت الخيط من عصا الصنارة، وهربت بالسمكة، جارة الخيط وراءها، فاحس ماركوفالدو ان السمكة اخذت منه عنوة بلحمها وشحمها، وهو ينظر اليها بعينيه.

قال ماركوفالدو لنفسه: هذه المرة لا تستطيعين ان تهربي مني ايتها القطة المخادعة، سيدل عليك الخيط الذي جررته خلفك، سيدل على الطريق التي ستسلكينها.

واخذ ماركوفالدو يلاحق الخيط، دون ان يكون بامكانه مشاهدة القطة، وكان الخيط يركض فوق الحائط، مما يعني ان القطة قد تسلقت ذلك الجدار، ثم تدلى الخيط من خلال احد الابواب، ثم اختفى داخل احد الاقبية، وظل ماركوفالدو يغامر بالتوغل اكثر فاكثر إلى الاماكن التي ترتادها القطط، متسلقاً السطوح، او متعلقاً بدرابزينات الادراج، وكان دائماً قادراً على رؤية، او لمح طرف الخيط، ولو لثانية واحدة قبل ان يختفي. كان هذا، هو الأثر الوحيد المتحرك امامه، الذي يدل على خط سير السارق.

اخيراً، رأى ماركوفالدو الخيط يتمدد على رصيف الشارع، فركض باتجاهه، والقى بنفسه عليه، خوفاً من ان يفلت منه، ولكنه افلت منه بالرغم من ذلك وبقي ماركوفالدو ملقى على الارض، يراقب طرف الخيط، وهو ينسل من قضبان البوابة شبه الصدئة، ثم يدخل في حائط مغطى بالاشجار المرتفعة، حيث توجد احدى الحدائق التي تحيط بمنزل مهجور، وفي نهاية الحديقة، صنعت اوراق الاشجار الجافة سجادة خضراء غطت الممر كله.

لقد اكتشف ماركوفالدو الآن شيئاً جديداً، كانت الاوراق المتساقطة تملأ المكان، كل المكان، وكانت تتكدس في اكوام على الساحة الصغيرة، وهناك طبقة من الاغصان الخضراء الصغيرة، في بركة المياه الآسنة، المحاطة بالعمارات وناطحات السحاب، وآلاف النوافذ، التي تسلط عليها نظرات عدم الرضى، إذ كيف تسمح هذه المساحة الصغيرة من الارض، المحاطة بسور من اللبن، للاوراق الخضراء والصفراء ان تتكدس فيها، كيف تسمح هذه البقعة الصغيرة الواقعة في منطقة مزدحمة وكثيرة الحركة ان تكون مأوى لهذه الكائنات الصغيرة، التي تراها هنا وهناك، جاثمة على رؤوس الاعمدة والدرابزينات، او مستلقية على الاوراق الجافة، واحواض الزهور، أو متسلقة جذوع الاشجار، وانابيب

Twitter: @ketab_n

تصريف المياه، او واقفة على قوائمها الاربعة وذيولها تتحرك على شكل علامة استفهام، وكانها قد جاءت لغسل وجوهها في تلك البركة. كان هناك مزيج مدهش من القطط، قطط نمرية، قطط سوداء، قطط بيضاء، قطط كالكتا، قطط سيامية، قطط تاليز، قطط انغورا، قطط فارسية، بعضها قطط اليفة، والبعض الآخر قطط برية، بعضها تفوح منها رائحة العطر والبعض الآخر في غاية القذارة.

عند وصوله إلى هذا المكان، ادرك ماركوفالدو انه قد وصل اخيراً إلى قلب مملكة القطط، وإلى جزيرتها السحرية السرية. وانتابته احاسيس غريبة، جعلته ينسى السمكة، التي كانت السبب في مجيئه إلى هذا المكان, وكانت السمكة معلقة في خيطها على احد الاغصان، وكانت القطط تقفز باتجاهها محاولة الوصول اليها، ولم يستطع ماركوفالدو معرفة السر الذي جعل هذه السمكة تتعلق في هذا المكان، ترى هل سقطت من فم مختطفتها اثناء احدى الحركات المتهورة التي قامت بها، او انها هوجمت من قبل قطط اخرى، فجعلتها تلقي بها من ذلك المكان، أو انها عرضت هذه السمكة، كجائزة للقطط التي تستطيع الوصول اليها، في مسابقة رائعة للقفز.

وبينما كان ماركوفالدو يحاول فك الخيط، الذي كان قد تشابك بين الاغصان كانت معركة حامية الوطيس تدور بين جموع القطط، التي كانت تحاول كلها الوصول إلى تلك السمكة البعيدة المنال، محاولة اكتساب حق الحصول عليها. وكل واحدة منها تحاول منع الاخرى من القفز. كانت القطط تلقي بنفسها على بعضها البعض، او تتصارع بايديها، في منتصف تلك المنطقة الواقعة اسفل السمكة، او تتدحرج فوق بعضها البعض، في حرب شاملة ضروس اثارت خلفها عاصفة من الاوراق الجافة المتكسرة.

وبعد محاولات كثيرة، استطاع ماركوفالدو تخليص الخيط، فحاول ان يتدبر الأمر بعناية، مقرراً الا يسحبه، حتى لا تسقط سمكة السلمون وسط تلك القطط الصاخبة المتصارعة. وفي تلك اللحظة، بدأ مطر غريب يتساقط من فوق اسوار الحديقة، مكوناً من عظام سمك، ورؤوس، وذيول، واشياء اخرى، كالصفراء، والكبد، والامعاء، وغيرها مما جعل اهتمام القطط يتحول عن سمكة السلمون إلى هذه الاشياء. فانطلقت خلف هذه الاشياء، ممنية

Twitter: @ketab_n

نفسها باكل شهي. كانت هذه هي اللحظة المناسبة لماركوفالدو، كي يسحب الخيط لاستعادة سمكته المفقودة. ولكن قبل ان يسعفه الحظ، ولدهشته الشديدة، تقدمت من خلال احدى نوافذ فيلا صغيرة مطلة على المكان، يدان صفراوان معروقتان، امسكت احداهما بمقص، وامسكت الاخرى بمقلاة، وارتفعت اليد التي تحمل المقص إلى اعلى، وانخفضت اليد التي تحمل المقلاة إلى اسفل، وقصت اليد العليا الخيط، لتسقط السمكة في المقلاة، ثم انسحبت اليدان بالمقص والمقلاة والسمكة، واقفلت النافذة، وقد حدث كل هذا، امام عيني ماركوفالدو المدهوشتين، وفي اقل من طرفة عين.

وبينما كان ماركوفالدو يحدق مذهولاً، جاءه صوت من الخلف يقول:

ـ هل انت ايضاً تحب القطط؟

واستدار لمصدر الصوت، ليجد نفسه محاطاً بمجموعة من السيدات الهرمات، ضئيلات البنية، يرتدي بعضهن ملابس قديمة الموضة، ويلبسن قبعات من طراز قديم فوق رؤوسهن. بعضهن اصغر من بعض، ولكن في نظراتهن، يأس النساء العوانس الوحيدات. كلهن كن يحملن بين ايديهن رزماً من بقايا السمك، او صناديق اللحمة والبيض، والحليب، ويتوسلن لماركوفالدو قائلات:

ـ هل تستطيع مساعدتنا في القاء هذه الطرود من فوق السياج لهذه المخلوقات المسكينة البائسة.

كانت السيدات يتجمعن في مثل هذه الساعة من النهار حول سياج الحديقة من اجل اطعام قططهن المفضلة.

وتساءل ماركوفالدو:

ـ هل تستطيع احداكن اخباري عن السبب الذي يدعو مثل هذه القطط للتجمع في هذا المكان.

قالت احدى السيدات:

ـ واين يمكنها ان تذهب. هذه الحديقة هي المكان الوحيد المتبقي لها في هذه المدينة، والقطط، لا تأتي إلى هذا المكان من الاماكن المجاورة فقط، بل ومن اماكن تبعد اميالاً واميالاً عن هذا المكان.

واضافت سيدة اخرى:

Twitter: @ketab_n

ـ وليست القطط هي التي تأتي إلى هنا، بل هناك المئات من الطيور التي اجبرت على العيش فوق اغصان اشجار هذه الحديقة الصغيرة.

وقالت سيدة ثالثة:

ـ والضفادع كذلك، لا تجد الا هذه البركة، انها لا تتوقف عن اصدار النقيق، الذي يمكنك سماعه حتى من الطابق الثامن للعمارات المجاورة.

واختفت السيدات، عاشقات القطط، قبل ان يطرح ماركوفالدو سؤاله الخطير:

ـ من يملك هذه الفيلا؟

لذلك كان لابد من طرحه على الرجال الآخرين، الذين كانوا يأتون إلى هذا المكان، مثل عامل الوقود في المحطة المقابلة، او مساعدي الميكانيكي صاحب الكاراج المقابل او موزع البريد، او صاحب البقالة، او بعض المارة، ولم يكن احد منهم، سواء كان رجلاً أو امرأة، يرغب في ان يسأل مرتين، كلهم يريدون ان يتكلموا، وان يتحدثوا في مواضيع غامضة مثيرة للجدل.

ـ صاحبتها هي السيدة مارتشيسا، انها تعيش فيها، ولكنك لن تراها قط.

ـ لقد عرضت عليها مكاتب العقارات والاراضي، ملايين الملايين، مقابل هذه القطعة الصغيرة من الارض، ولكنها رفضت ان تبيع.

ـ ولكن ما عساها تفعل بكل هذه الملايين، وهي سيدة عجوز، وحيدة في هذا العالم، انها ترغب بالاحتفاظ بمنزلها، وهي تراه يتساقط جزءاً جزءاً بدلاً من ان تجبر على الرحيل عنه.

ـ انها القطعة الوحيدة في هذه المدينة التي لم يشملها التطوير، وثمنها يزداد عاماً بعد عام، والعروض العديدة عليها لا تتوقف.

ـ عروض، من قال لك انها عروض فقط، انها تهديدات ومضايقات، واضطهاد، انك لا تعلم شيئاً عن حقيقة ما يفعله بها المقاولون والمتعهدون.

ـ ولكنها ظلت صامدة في وجههم طوال هذه السنوات.

ـ انها ملاك، بدونها، اين يمكن ان تذهب هذه الحيوانات المسكينة.

ـ اوه، هذه العجوز البخيلة لا تهتم بهذه الحيوانات، هل رأيتموها تقوم باطعامها ولو مرة واحدة.

Twitter: @ketab_n

ـ كيف تستطيع إطعام هذه القطط، وهي لا تملك ما تأكله، إنها آخر شخص من سلالة منقرضة، من عائلة مدمرة.

ـ انها تكره القطط، لقد رأيتها وهي تطارد القطط وتضربها بمظلتها.

ـ الحق على القطط، لقد قامت بتدمير حوض الورود.

ـ واية ورود هذه التي تتحدث عنها، انا لم ار في هذه الحديقة سوى الاعشاب.

لقد اوقعت هذه الاراء المتضاربة، حول العجوز مارتشيسا، صاحبنا ماركوفالدو في حيرة شديدة، ففي الوقت الذي يصفها بعضهم بالملاك. ينعتها آخرون بالبخل وحب الذات. ولكن لا بأس، يجب ان يستمع لهذا الحوار حتى النهاية:

ـ نفس الشيء يحدث مع الطيور ايضاً، انها لم تحاول تقديم الفتات لهذه الطيور.

ـ لقد قامت بواجب الضيافة، الا يعني هذا شيئاً كثيراً؟

ـ ضيافة، انها تستضيف البعوض ايضاً فمن هذه البركة تنطلق اسراب البعوض التي تغزو احياءنا.

ـ وهي ايضاً منجم للفئران، فتحت اوراق هذه الفيلا، مئات الجحور، التي تصدر الفئران لمنازلنا خلال الليل.

ـ اذا كانت الفئران مشكلة، فالقطط كفيلة بها.

ـ آه، أنت وقططك! إذا كان علينا ان نعتمد عليها. . . .

ـ لماذا، هل لديك شيء تريد ان تقوله ضد القطط.

عند هذه النقطة تحول النقاش إلى شجار علني، فقال احد الرجال:

ـ يجب على السلطات عمل شيء، أي شيء، كأن تحجر على الفيلا.

فاحتج آخر قائلاً:

ـ وبأي حق يفعلون ذلك؟

ـ في حي راق كحينا، فان من واجبنا ان نطالب السلطات باغلاق هذا الوكر الذي تعيش فيه القطط والفئران والبعوض والضفادع.

ـ لماذا، هل تعرف ان سبب اختياري لشقتي، كان لانها تطل على هذا الجزء الاخضر البسيط.

Twitter: @ketab_n

ـ خضار بسيط، لماذا لم تفكري بناطحة السحاب الجميلة التي يجب ان تبنى هنا؟

كان ماركوفالدو يرغب بأن يضيف شيئاً من عنده، ولكن احتدام النقاش كان يمنعه من التفوه بشيء، واخيراً وجد الفرصة المناسبة كي ينطق جوهرته فقال:

ـ لقد سرقت السيدة مارتشيسا سمكة السلمون مني.

زوّد هذا الخبر غير المتوقع، جماعة المناهضين للسيدة مارتشيسا بمادة جديدة للحديث، اما المدافعون عنها فقد فسروها بسبب المستوى المعيشي السيء الذي وصلت اليه تلك السيدة النبيلة، الا ان الطرفين اتفقا على ان يقوم ماركوفالدو بطرق باب السيدة، طالباً تفسير ما حدث.

لم يكن واضحاً، فيما اذا كان باب الفيلا مفتوحاً ام مغلقاً، ولكن ماركاوفالدو شق طريقه كشبح، بين الاوراق المتساقطة والقطط، متسلقاً الدرج حتى وصل إلى الباب، وقام بطرق الباب بعنف، ولم يفتح الباب، بل فتحت إحدى ضلفتي النافذة، ومن خلال ذلك الشق الصغير، استطاع ماركوفالدو ان يرى عينين زرقاوين شاحبتين، وحفنة من الشعر المصبوغ، بلون غير محدد، ويدين معروقتين، وسمع صوتاً يسأل:

ـ من هناك، من بالباب؟

ورأى سحابة من دخان الزيت المقلي تخرج مع تلك الكلمات.

ـ انني انا ياسيدة مارتشيسا، انا صاحب سمكة السلمون.

واضاف:

ـ انا لا ارغب في ازعاجك، انني اريد اخبارك فقط بان سمكة السلمون لي، لقد سرقتها مني احدى القطط، وجاءت بها إلى هنا، انا الذي اصطاد تلك السمكة، والخيط...

قطعت السيدة مارتشيسا الحديث قائلة:

ـ قطط، قطط، دائمًا هذه القطط.

وعلا صوتها اكثر من خلف مصراع الباب، وكأنها تتحدث من انفها

ـ كل مشاكلي بسبب هذه القطط، الله وحده يعلم، كم اعاني منها، انني رهينة هذه الحيوانات ليل نهار، وكل تلك القاذورات التي يلقيها الناس

Twitter: @ketab_n

اليها من وراء السور، هي في الواقع إهانة واحتقار لي.

ـ ولكني اسأل عن سمكتي.

ـ سمكتك، ماذا تريد ان تقول عن سمكتك؟

وعلا صوت السيدة مارتشيسا اكثر من السابق، واصبح اقرب إلى الصراخ، كأنها تحاول ان تخفي صوت الزيت في المقلاة، ولكن صوتها كان محملاً برائحة قلي السمك الطازج:

ـ كيف لي ان اميز بين الاشياء، كثيرة هي الاشياء التي تسقط على بيتي كالمطر.

ـ أعرف ذلك ولكن اريد ان اسأل هل اخذت سمكة السلمون ام لا؟

ـ ارجوك، ارجوك ايها السيد ان تفهم، انني عندما افكر بالاضرار الكبيرة التي لحقت بي من جراء هذه القطط، اصاب بالذهول، لقد استولت هذه القطط على الحديقة والمنزل منذ عدة سنوات، واصبحت حياتي تحت رحمتها، اذهب وفتش عن اصحاب تلك القطط، كي يدفعوا لي ولك بدل عطل وضرر، لقد تدمرت حياتي كلها، انني سجينة هنا، سجينة لا تستطيع حراكاً.

ـ استميحك لعذر ياسيدتي، ولكن ما الذي يجبرك على البقاء هنا؟

ومن خلال المصراع، استطاع ماركوفالدو ان يرى اضافة إلى العينين الزرقاوين الدائريتين الشاحبتين، فمًا، بضرسين بارزين، فبدا الامر لماركوفالدو مذهلاً، إنه لا يرى وجه امرأة، بل وجه قطة، قطة حقيقية.

ـ لقد حكمت علي هذه القطط بالسجن المؤبد هنا، آه كم اشعر بالسعادة لو استطيع ان اغادر هذا المكان، لاعيش في شقة صغيرة في بناية حديثة، آه لو استطيع ان اعيش وحدي، لا يشاركني حياتي احد.

ثم تحول صوت السيدة إلى صوت هامس، كأنه يبوح لماركوفالدو بسر:

ـ ولكنني لا استطيع ان اغادر هذا المكان، سيلحقون بي، ويسدون الطريق علي.

ـ من؟

ـ هذه القطط، انها تخاف ان اقوم ببيع هذه القطعة من الارض، ولن تدعني افعل ذلك ابداً، لن تسمح لي بذلك، آه لو رأيتها حين جاءني المتعهدون بعقودهم، لقد تصدت هذه القطط للمتعهدين، وكشرت عن انيابها،

Twitter: @ketab_n

واظهرت مخالبها، وطاردت احد المحامين حتى اجبرته على الهروب بجلده. وحين استطعت مرة الحصول على احد العقود لتوقيعه هاجمتني من النافذة وصبت غضبها على محبرة الكتابة، ومزقت العقد.

وفجأة تذكر ماركوفالدو، قسم الشحن، ورئيس العمال، فانسحب على اطراف اصابعه فوق الاوراق الجافة غير ملتفت للصوت الذي كان يلاحقه من خلال النافذة مصحوباً برائحة السمكة، ودخان زيت المقلاة:

ـ لقد خمشتني هذه القطط، وآثار جراحها ماتزال ظاهرة... انني وحيدة هنا تحت رحمة هؤلاء الشياطين.

وأتى الشتاء، وأزهرت الرقائق الثلجية البيضاء، وتراكمت على الاغصان والاعمدة، وذيول القطط، وتحت الثلج تحللت الاوراق الجافة وتحولت إلى طين. واصبح من النادر رؤية تلك القطط حتى من قبل محبيها، وكانت عظام السمك الدهنية، توضع للقطط القادرة على الوصول إلى البوابة، ولم يعد احد يرى او يسمع اي شيء عن مارتشيسا، وتوقف الدخان عن الخروج من مدخنة الفيلا.

وذات يوم ثلجي ازدحمت الحديقة فجأة بالقطط، التي عادت اليها، كأنها تعود في يوم ربيعي مشمس، وابتدأت بالمواء، كانها في ليلة قمرية، فعرف عندها الجيران ان شيئاً ما قد حدث، فذهبوا وطرقوا باب (مارتشيسا) فلم يجبهم احد، كانت مارتشيسا قد ماتت.

وحين عاد الربيع، رأى ماركوفالدو بدلاً من الحديقة ورشة عمل لبناء عمارة كبيرة يقوم بانشائها احد المقاولين، كانت الحفارات البخارية تحفر الارض، باعماق كبيرة، من اجل ارساء اساسات العمارة. وكانت الرافعة العالية، تقوم بصب الاسمنت على الاذرع الحديدية، وتقوم بتمرير الدعامات الحديدية للعاملين الذين يقومون بتثبيتها وثنيها. ولكن الأمر لم يكن يسير على ما يرام، ولم يكن بامكان العمال السير في عملهم، فقد كانت القطط تسير على الواح الخشب، تسقط صفوف الطابوق، وتهدم حجارة البناء، وتقلب اوعية الخلطة الاسمنتية، وتتصارع فوق اكوام الرمل، وحين يبدأون برفع الواح الحديد المسلح، كانوا يجدون قطة جاثمة فوقها، مكشرة عن انيابها تزمجر

Twitter: @ketab_n

بغضب، وتضربهم بمخالبها، بحيث لا يجدون طريقة للخلاص منها.

اما الطيور فقد استمرت بصنع اعشاشها في موقع البناء، وعلى رأس الرافعة، وكانها حديقة طيور، اما الماء، فلم يكن بامكانك ان تملأ اناءاً واحداً منه، دون ان يكون مزدحماً بالضفادع التي تتقافز منه هنا وهناك.

Twitter: @ketab_n

الشتاء

٢٠ . اطفال بابانويل

اكثر فترات العام رقة ولطفاً وطيبة، في عالم التجارة والصناعة، هي فترة اعياد الميلادوالاسابيع التي تسبقها، حيث تبدأ اصوات موسيقى القرب الجبلية بالتدفق إلى المدينة.

ففي هذه الفترة تنقلب الامور، في الشركات الكبرى، التي تكون في ذلك الوقت منهمكة في جرد حساب الانتاج، وحساب الربح للعام المنتهي، فتفتح هذه الشركات قلبها فجأة للمشاعر الانسانية، وابتسامات الفرح، ويصبح التفكير الوحيد الذي يلح على مجالس الادارة، هو كيفية اشاعة البهجة والسرور في قلب اخيهم الانسان، اما بارسال الهدايا، او الرسائل التي تحمل تمنياتهم بعام سعيد للشركات الاخرى، والاشخاص المعنيين. وقد تجد كل شركة نفسها مجبرة على شراء طلبات خاصة لنماذج من البضائع التي تنتجها الشركات الاخرى، لتقديمها كهدايا لشركة ثالثة، والشركات المشترى منها، تقوم هي الاخرى بشراء انتاج شركات اخرى لتوفر الهدايا للآخرين، فتبقى نوافذ المكاتب مضاءة حتى ساعة متأخرة من الليل، خاصة اقسام التسليم والشحن، حيث يعمل العاملون فيها وقتاً اضافياً، في تغليف الهدايا ووضعها في علب وصناديق، حيث يمكن مشاهدتهم من خلف غبش الزجاج الغارق في الضباب الرطب:

وعلى الارصفة المغطاة بطبقة من الثلج، يتقدم نافخو القرب الذين نزلوا

Twitter: @ketab_n

من الجبال السوداء الغامقة، لاخذ مواقعهم على تقاطعات وسط المدينة، مبهورين قليلاً بالاضواء الكثيرة، وواجهات المحلات، وشرفاتها، المزدحمة باكثر من طاقتها بالبضائع، يقفون محنيي الرؤوس، منكبين على قربهم.

ولدى سماع ذلك الصوت، يتناسى رجال الاعمال تضارب مصالحهم، ويبدأون بالتفكير في ايجاد طرق جديدة للمنافسة، في تقديم افضل الهدايا، عن طريق اكثر الطرق جاذبية. ففي شركة (سباف وشركاه) مثلاً، اقترح مكتب العلاقات العامة في تلك السنة، ان تقدم هدايا عيد الميلاد، للاشخاص المهمين، وان يتم تسليمها لهم في منازلهم عن طريق رجل يرتدي ملابس (بابانويل) وقد ووفق على هذه الفكرة بالاجماع من قبل الادارة العليا، حيث تم شراء ملابس (بابانويل) كاملة، اللحية البيضاء، الطاقية الحمراء، السترة المذيلة بالفرو الابيض، والجزمة الطويلة.

وقد حاول العديد من الاذنة والمراسلين قياس هذه الثياب على اجسامهم ليروا مدى ملاءمتها لهم، لمعرفة الشخص المناسب لهذه الملابس، وقد كان بعضهم قصيراً جداً، لدرجة ان اللحية البيضاء قد لامست الارض، وكان بعضهم سميناً جداً، لدرج ان السترة لم تنطبق عليه، وآخرون كانوا في ريعان الشباب، لا ينفعون لهذه المهمة، اما آخرهم فقد كان رجلاً عجوزاً لا يستحق ان توضع عليه اصباغ الماكياج الخاص بالتنكر. وكان رئيس مكتب شؤون الموظفين يطالب الاقسام باستمرار لارسال الاشخاص الذين يمكن ان يكونوا (بابانويل) الشركة.

وقد حاول مجلس ادارة الشركة، تطوير الفكرة، فاقترح مكتب العلاقات العامة وشؤون الموظفين ان يتم توزيع الهدايا الخاصة بالموظفين من قبل بابانويل، خلال حفل جماعي، ورغب قسم المبيعات ان يقوم بابانويل بجولة على المحلات التجارية. اما قسم الدعاية والاعلان، فقد كان حريصاً على اظهار اسم الشركة في مكان واضح ومناسب، فاقترح ربط اربعة بالونات كبيرة الحجم، منفوخة، وتحمل الحروف الابجدية لكلمة (سباف) (س. ب. ا. ف) وكان الجميع سعداء بجو المرح والود، الذي ساد الشركة خلال فترة الاعياد.

ان اجمل شيء يمكن ان تفعله هذه المدينة المنتجة، هو تحويل انتاجها إلى مشاعر انسانية رقيقة، حيث تتطاير هذه البضائع والمنتوجات من كل

Twitter: @ketab_n

صوب، حاملة علاماتها التجارية، على جناح المودة والحب، يصحبها موسيقى القرب، المميز والشجي، حيث كان هذا الصوت يرفرف فوق الجميع.

اما الحدث العام، فقد كان في قسم الشحن، في شركة (سباف) حيث وقع الاختيار على ماركوفالدو ليكون (بابانويل) وبهذا فان هذه البضائع المحملة بالعبارات الرقيقة والمشاعر الطيبة ستخرج من تحت يديه، ولم تكن سعادته، لانه سيقوم بهذا العمل فقط، بل لانه كان يشعر انه، وفي نهاية المطاف، وبعد هذه المتاهة بين مئات الصناديق، سيجد صندوقاً ما بانتظاره، يقدمه له قسم شؤون الموظفين وانه سيتلقى نصيبه ايضاً من الارباح، والاكرامية، وساعات العمل الاضافي، وهذه الهبات كلها ستجعله قادراً على الانطلاق، للتجول بين المحلات، كي يشتري مايشاء من الهدايا، ليعبر عن مشاعره الخاصة تجاه احبته المقربين، ويستطيع ايضاً ان يشارك في رفد المصالح التجارية العامة، ويدعمها بالشراء.

حضر رئيس قسم الموظفين حاملاً بين يديه اللحية المستعارة، ونادى على ماركوفالدو قائلاً:

ـ انت، دعنا نرى كيف تبدو عليك هذه اللحية.

واضاف:

ـ رائع، انت اذن بابانويل، اصعد إلى فوق، سوف تعطى لك اكرامية خاصة، اذا استطعت ان تقوم بتوصيل خمسين هدية لاصحابها كل يوم.

وهكذا، فقد ركب ماركوفالدو دراجته النارية، وسار في طريق المدينة، يحمل في صندوق دراجته رزماً كثيرة ملفوفة بالورق الملون والاشرطة الجميلة الزاهية الالوان، ترافقها اوراق شجرة الميلاد المقدسة، ومع ان اللحية القطنية الطويلة البيضاء كانت تحكه، الا انها كانت جيدة لحماية حنجرته ورقبته من لفحات الهواء البارد.

كانت اول زيارة يقوم بها ماركوفالدو، هي زيارة بيته، لانه لم يستطع مقاومة رغبته، في مفاجأة اولاده بهذا الأمر، وظن في البداية انهم لن يستطيعوا التعرف عليه ولكنه راهن انهم سيضحكون. وكان الاطفال يلعبون على درجات الدرج فلم يعيروه اي اهتمام، بل قالوا بصوت واحد:

ـ اهلاً بابا

خاب ظن ماركوفالدو، حين احبطت حيلته، فتنحنح:

Twitter: @ketab_n

ـ هم هم، الا ترون ما البس، هل تعرفون هذا الزي الذي ارتديه؟
قال (بيتوشيو): انه زي بابانويل، اليس كذلك؟
ـ لقد عرفتموني من اول نظرة.
ـ نعم وبسهولة، لقد تعرفنا على السيد (سيجسمندو) الذي كان يرتدي هذا اللباس باتقان اكثر منك.
ـ وتعرفنا على صهر حارس العمارة.
ـ ووالد الطفلين التوأمين، الذي يسكن على الرصيف المقابل.
ـ والعم ارنستينا، صاحب الشعر المجدول.
فسأل ماركوفالدو:
ـ وهل كانوا كلهم يرتدون ملابس بابانويل!
كان صوت ماركوفالدو ينم على الشعور بالخيبة، ليس فقط، لانه فشل في مفاجأة عائلته، بل لانه احس ان كل مخططات شركته قد تأثرت نوعاً ما.
وكان جواب الاطفال:
ـ نعم، مثلك بالضبط، لقد كانوا يرتدون اللحية الاصطناعية، واستداروا بظهورهم وانشغلوا بالعابهم.
كان هذا الجواب كافياً، لكشف اللعبة، فقد كانت كل اقسام العلاقات العامة، في الكثير من الشركات قد توصلت إلى نفس الفكرة، وقامت بتنفيذها في نفس الوقت ايضاً.
وقد قامت هذه الشركات، باستخدام اعداد كبيرة من الناس العاطلين عن العمل مثل الباعة المتجولين، والمتقاعدين، وقاموا بالباسهم ملابس بابانويل. وقد جذبت الستر الحمراء، واللحى الصوفية البيضاء الاطفال في بادىء الامر، فاخذوا يلعبون لعبة التعرف على معارفهم من خلف هذه الملابس التنكرية، وكانوا كلهم من سكان الحي، الا انهم بعد فترة وجيزة، ملوا هذه اللعبة، وبدأوا يفكرون بأمر آخر، اخذ منهم اهتمامهم كله، حيث اجتمعوا اسفل الدرج، وجلسوا على شكل دائرة، مما دفع ماركوفالدو لأن يسألهم:
ـ هل يمكنني ان اعرف ماذا تفعلون، وماذا تخططون؟
ـ دعنا وشأننا ياأبي، اننا نحضر هدايانا.
ـ هدايا لمن؟
ـ هدايا لطفل فقير، ويجب علينا العثور على هذا الطفل الفقير، لتقديم

Twitter: @ketab_n

الهدايا له.

ـ ومن قال هذا؟

ـ هذا موجود في كتاب المطالعة المدرسي.

اوشك ماركوفالدو ان يقول:

ـ ولكنكم انتم انفسكم اطفال فقراء.

الا انه احجم عن ذلك، فقد اقتنع منذ الاسبوع الماضي، بان الخير كل الخير قد اصبح ملك يديه، وان الناس كل الناس، سيتحلقون حوله، ناثرين عليه عبارات الشكر، بعد ان يغمرهم باجواء الود والمحبة والخير ويناولهم الهدايا. لذلك، فقد كان مجرد لفظ كلمة الفقر، عملاً غير منطقي، ودعاية سيئة، اذ كان من الواجب عليه اخبار الاطفال، بان الأطفال الفقراء لم يعد لهم وجود بعد الآن.

هنا وقف (ميشلينو) ليقول له:

ـ الهذا السبب، لا تقوم باحضار الهدايا لنا ياأبي؟

فاحس ماركوفالدو بغصة الم في قلبه، فاجاب بسرعة:

ـ علي الآن ان اقوم بعمل اضافي، استطيع من خلاله كسب مبلغ من المال وبعد ان انتهي سأقوم باحضار الهدايا لكم.

ـ وكيف ستكسب المال؟

ـ بتوصيل هذه الهدايا.

ـ لنا؟

ـ لا، لأناس آخرين؟

ـ ولماذا ليس لنا، على الأقل سيكون توصيلها اسرع واسهل؟

فحاول ماركوفالدو توضيح الأمر لصغاره، بقوله:

ـ لو كنت بابانويل قسم شؤون الموظفين، لأوصلتها لكم، ولكنني انا الآن بابانويل قسم العلاقات العامة، هل فهمتم؟

ـ لا، لا.

ولكن لرغبة ماركوفالدو في ايجاد طريقة يعتذر بها عن قدومه إلى البيت خالي اليدين، فكر باخذ (ميشلينو) معه في جولته، وهو يقوم بتسليم الهدايا، فقال له:

ـ اذا كنت ولداً مطيعاً، يمكنك مرافقتي لترى اباك وهو يسلم الهدايا

Twitter: @ketab_n

للناس.

ثم انطلق إلى دراجته النارية، وأردف ولده (ميشلينو) خلفه وانطلقا معاً.

وفي شوارع المدينة كلها، لم يلتق ماركوفالدو، الا بالرجال الذين يرتدون لباس بابانويل، بالوانهم الحمراء والبيضاء، المتشابهين تماماً.وكانوا كلهم يقودون شاحنات وعربات التسليم، او يفتحون ابواب المحلات للزبائن المحملين بالرزم والمشتريات، او يساعدون في توصيل تلك الرزم واللفائف للسيارات. وكان كل هؤلاء الرجال المتشبهين ببابانويل، منهمكين في اعمالهم، كأنهم هم المسؤولون عن مسار عجلة الآلة الضخمة لعطلة العيد.

وكان ماركوفالدو منهمكاً مثلهم، ينتقل من عنوان إلى آخر بسرعة البرق، متابعاً القائمة التي يحملها، ونازلاً عن مقعد دراجته الصغيرة، مخرجاً اللفائف من العربة، ومقدماً احداها للشخص الذي يفتح له الباب، مردداً نفس الكلمات:

ـ شركة سباف وشركاه تتمنى لكم عيداً سعيداً وكل عام وانتم بخير. ثم يأخذ الاكرامية وينصرف راضياً، لأن الاكرامية تكون كبيرة في اغلب الاحوال، ولكن رغم ذلك كان يحس بفقدان شيء ما، فقد كان في كل مرة يقرع جرس الباب، يتوقع الدهشة على وجه الرجل الذي يفتح له الباب، خاصة عندما يرى بابانويل، وخلفه ابنه الصغير (ميشلينو)، وكان يتوقع كلمة طيبة، او مجاملة، او اي تقدير جميل، الا انه وفي كل مرة يقرع فيها الباب، كان يستقبل كساعي البريد، او موزع الجريدة. وعندما قرع جرس بيت فخم، فتحت المربية الباب، وقالت:

ـ آه رزمة جديدة، من هو صاحب هذه الرزمة ياترى؟

ـ شركة سباف وشركاه، تتمنى لكم...

ـ حسناً، احضرها للداخل

ثم قادت بابانويل، خلال ممر مليء باللوحات والمطرزات اليدوية، والكنفاه، والسجاد، واواني الزهر الصينية، وتبع (مشلينو) اباه، مبهوراً. ثم فتحت المربية باباً من الزجاج، ودخل ماركوفالدو، وولده إلى غرفة ذات سقف عال، تستطيع شجرة بلوط كبيرة ان تنمو تحت سقفه حيث شاهدا شجرة عيد ميلاد مضاءة بمصابيح زجاجية صغيرة من كل لون وعلى اغصانها علقت الهدايا والحلويات من كل صنف، ومن السقف تدلت ثريا كريستال ثقيلة،

Twitter: @ketab_n

لامست الاغصان العلوية للشجرة، وكانت هناك مائدة طعام مليئة بالكؤوس والاطقم الفضية، وصناديق الفواكه المعلبة والمجففة وصناديق الشراب، وكانت الالعاب مبعثرة فوق السجادة العظيمة بكميات كبيرة لا تجدها الا في دكان الالعاب، وكانت في معظمها العاباً الكترونية معقدة، على شكل سفن الفضاء، وفوق احدى السجاجيد، في احد الاركان جلس صبي صغير، لا يتجاوز التاسعة من العمر، يلقي بنظرات متعبة ضجرة، ويتفحص مجلداً ضخماً، وكأن كل ما حوله لا يخصه ولا يعنيه.

قالت المربية:

ـ انظر ياجيانفرانكو، انظر ياجيانفرانكو، لقد عاد بابانويل ثانية ليقدم لك هدية اخرى.

قال الطفل:

ـ ثلاثمائة واثنا عشر.ثم تنهد دون ان يرفع رأسه عن كتابه واضاف:

ـ ضعها هناك.

واكملت المربية:

ـ حقاً انها الهدية رقم (٣١٢)، فجيانفرانكو طفل ذكي جداً، لا يخطىء في العد اطلاقاً، فالحساب هو هوايته المفضلة.

وضع ماركوفالدو الهدية، وانسل مع ابنه ميشلينو على اطراف اصابعهما وغادرا المنزل، وسأل (ميشلينو) اباه:

ـ ابي، هل هذا هو الطفل الفقير.

كان ماركوفالدو في تلك الاثناء مشغولاً في اعادة ترتيب محتويات العربة فلم يجب على الفور ولكنه بعد برهة اسرع بالاحتجاج مستنكراً ذلك السؤال.

ـ فقير، عن اي شيء تتحدث؟ ومن هو هذا الذي تتحدث عنه الا تعرف من هو ابوه؟ انه رئيس جمعية ترشيد الاستهلاك في اعياد الميلاد، انه القائد...

وتوقف ماركوفالدو عن الكلام فجأة، وقطع سيل كلماته، حين نظر حوله فلم يجد (ميشلينو) فاخذ يصيح:

ـ (ميشلينو) (ميشلينو)، (ميشلينو)، اين انت؟ لقد اختفى،اراهن انه رأى بابانويل آخر يمر من هنا، فلحق به.

وتابع ماركوفالدو جولته، الا انه كان قلقاً على ولده، ولم يطق صبراً، فعاد

Twitter: @ketab_n

للبيت مرة اخرى، حيث وجد ميشلينو مع اخوته الصغار في احسن حال

ـ قل لي اين اختفيت؟

ـ لقد عدت مرة اخرى للبيت، لجمع الهدايا لذلك الطفل الفقير.

ـ ماذا، اي طفل؟

ـ ذلك الطفل الحزين، الذي كان جالساً في الفيلا، مع شجرة عيد الميلاد.

ـ واي نوع من الهدايا يمكنك تقديمها اليه؟

ـ لقد جمعنا له بعض الهدايا الممتازة، ولففناها في ورق فضي.

ـ وماذا فعلتم؟

ـ ذهبنا جميعنا اليه، ولا تدري مقدار فرحته، حين رأى تلك الهدايا!

وحاول ماركوفالدو ان يضربهم، ولكنه قال ساخراً:

ـ وهل اكملت هداياكم فرحته الناقصة؟

ـ نعم، لقد اخذها، وركض بعيداً، وفك اغلفتها ليرى ما هي!

ـ وماذا كانت؟

ـ الاولى كانت مطرقة خشبية ذات رأس مدور كبير

ـ وماذا فعل بها

ـ قفز بها فرحاً، واخرجها من المغلف، وبدأ باستعمالها. حيث حطم بها كل الهدايا التي كانت لديه ثم اخذ الهدية الثانية.

ـ وماذا كانت؟

ـ مقلاع مطاطي، آه لو رأيت سعادته بها، لقد اخذها وبدأ باقتناص كل الكريات الزجاجية المعلقة على شجرة عيد الميلاد، ثم اخذ يطلق قذائفه باتجاه الثريا.

ـ كفى، كفى، لا اريد سماع المزيد، وماذا كانت الهدية الثالثة؟

ـ لم يكن لدينا ما نقدمه له، فاخذنا بعض الاوراق الفضية، ولففنا بها علبة كبريت اخذناها من المطبخ، لقد كانت من اكثر الهدايا التي ادخلت السعادة إلى قلبه فقد اخبرنا انهم لا يدعونه يمسك الكبريت، ثم اخذ باشعال عيدان الثقاب حتى..

ـ حتى ماذا؟

ـ حتى اشتعلت النيران في الغرفة كلها.

Twitter: @ketab_n

حين سمع ماركوفالدو تلك الكلمات. اخذ يشد رأسه ويصيح:

ـ لقد طردت من عملي، لقد طردت من عملي...

في اليوم التالي، هرع ماركوفالدو إلى عمله، وهو يشعر باقتراب هبوب العاصفة، وقد حاول تجنبها قليلاً، فارتدى ثياب بابانويل في الحال، واخذ يملأ العربة بالهدايا بسرعة، ليقوم بتسليمها، ولم يلاحظ شيئاً، ولم يلمح له احد، او يخبره بشيء .وقبل ان ينتهي من عمله، رأى رؤساء الاقسام الثلاثة: رئيس العلاقات العامة، ورئيس قسم الدعاية، ورئيس القسم التجاري، يتقدمون منه ويصيحون:

ـ قف، وافرغ كل شيء في الحال.

ـ هكذا اذن.

وتخيل ماركوفالدو نفسه مطروداً، ولكن الرؤساء قالوا له:

ـ علينا ان نغير المحتويات جميعها، فقد علمنا ان رئيس لجنة حماية الاستهلاك، في اعياد الميلاد، بصدد شن حملة لملاحقة الهدايا المدمرة.

هنا، اعتقد ماركوفالدو، انهم قد اتخذوا القرار باسرع ما يمكن، ولكن احد رؤساء الاقسام اضاف موضحاً:

ـ لقد توثبت لدى الرئيس روح جديدة، ولكن الموضوع يتعلق بابنه مباشرة فقد قدمت لولده لعبة عصرية جداً، وهو يعتقد انها لعبة يابانية مدمرة، وقد لوحظ ان الطفل كان يريد ان يمتع نفسه بها.

وقال الرئيس الثالث:

ـ ان اهم ما حدث، هو ان رئيس ترشيد الاستهلاك، قد قرر تدمير جميع عينات الالعاب، من اي نوع كان، لقد تلقى السوق ضربة موجعة، ونحن نحتاج إلى السلامة في عملية المنافسة هذه. لقد رأى رئيس ترشيد الاستهلاك آفاقاً جديدة. إنه في السماء السابعة، ممتلىء بالحماسة....

ـ سأل ماركوفالدو بصوت ضعيف يكاد يتلاشى:

ـ هل دمر الكثير من الموجودات؟

ـ من الصعب الاجابة على هذا، او اعطاء اية افادة، حتى ولو كانت تقديرية، لقد احترق المنزل برمته.

افرغ ماركوفالدو حمولة عربته، وانطلق للشارع، الذي كانت الاضواء قد احالت ليله نهاراً، وكان مزدحماً بالامهات والاطفال، والاعمام والاخوال،

Twitter: @ketab_n

والبالونات الملونة والحقائب وادوات الزينة والخيول الراقصة، واشجار عيد الميلاد، والرجال الذين يرتدون زي بابانويل، والدجاج والديوك الرومية وكعكعات الفاكهة، والزجاجات، ونافخي القرب، ومنظفي المداخن، وبائعي الكستناء يهزون اطباق الكستناء فوق نار الموقد السوداء المتوهجة.

بدت المدينة أصغر، وقد تجمعت في انبوب مضاء مدفون في القلب الاسود لغابة بين السيقان المعمرّة لأشجار الكستناء وعباءة الثلج السرمدية. في منطقة ما من الظلام كان بالامكان سماع عواء ذئب؛ جحور الأرانب البرية كانت مدفونة تحت الثلج في التربة الحمراء تحت الطبقة التي صنعتها أغلفة ثمار الكستناء.

خرج أرنب صغير أبيض من تحت الثلج، ولَعَّب أذنيه، وجرى في ضوء القمر، ولكنه كان أبيض ولا تمكن رؤيته، وكأنه لم يكن أبداً هناك. تلك المخالب الصغيرة فقط تركت آثاراً خفيفة على الثلج ـ مثل أثر اوراق البرسيم الصغيرة. لم يكن بالامكان أيضاً رؤية الذئب. كان لونه اسود وكان يلازم الظلام الاسود الأكثر عتمة في الغابة. فقط عندما يفتح فمه كانت اسنانه تبدو ظاهرة، بيضاء وحادة.

كان هناك خط أسود تماماً، حيث توجد الغابة، ينتهي ثم يبدأ الثلج ابيض تماماً، كان الارنب البري يجري في خط الثلج والذئب يجري في خط الظلام الاسود.

رأى الذئب آثار الارنب البري على الثلج فتتبعها على ان يظل في الظلام حتى لا يُرى. وحيث تنتهي آثار الخطوات سيكون هناك الارنب وسيخرج الذئب من الظلمة ويفتح فمه الاحمر، على وُسعه، ويكشر عن اسنانه الحادة وبعض الريح.

كان الارنب على بعد خطوات قليلة، غير ظاهر للعيان، يحك اذنه بمخلبه ويثب على قدم واحدة هارباً.

هل هو هنا؟ هل هو هناك؟ هل هو على بعد خطوات من هنا؟

المدى الثلجي، فقط، يمكن ان يُرى أبيض مثل هذه الصفحة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إيتالو كالفينو

ماركوفالدو

يقدّم لنا الكاتب الإيطالي «إيتاليو كالفينو» في هذا العمل الروائي/القصصي صورة ساخرة فانتازية للمجتمع الصناعي الغربي، وما يتركه من آثار وخيمة على براءة الطبيعة وبساطة الروح البشري، المحاصر بتعقيدات ذلك المجتمع. كل ذلك رسمه كالفينو بأسلوب كاريكاتيري جاذب. شخصية العامل «ماركوفالدو» الذي يجعل منه نموذجا رافضا لمعطيات وإفرازات المجتمع الصناعي، عبر ارتباطه الحميم بالأرض وأشيائها غير المصنّعة: بالنباتات والحيوانات الأليفة، بالغابات والأنهار والجبال، بسذاجة الطفولة وعفوية الحب.

يمضي «ماركوفالدو» في بحثه الدؤوب عن أثر للطبيعة معافى من تشويه وتخريب عجلة الصناعة الاستهلاكية، ليجد نفسه وأسرته الصغيرة الفقيرة في مواقف ومفارقات مضحكة مؤسية في آن، وليذهب عناء بحثه أدراج الرياح.

إن الأسلوب المؤثّر الذي صاغ «إيتالو كالفينو» به عمله هذا، بمزجه الواقع بالخيال، ودقة تصويره للأحداث والشخصيات، هو ما يجعل من هذا الكتاب عملاً شديد الغنى وذا أعماق وأغوار طافحة بحب الإنسان والتفاني في احترام إنسانيته.

ISBN 978-9-9570900-4-3

تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن